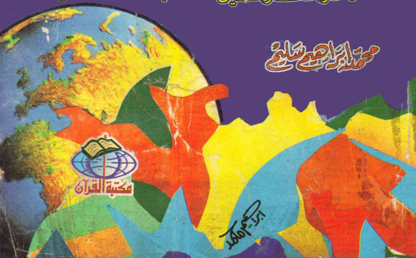
الأربعة

الذين ملكوا العالم

مؤمنان .. وكافران

- سليمان عليه السلام
- ذو القرنين
- النمرود
- بختنصر

محمد إبراهيم سليم



مكتبة القرآن

محمد إبراهيم سليم

الأربعة الذين ملكوا العالم قديماً

مؤمنان وكافران

دروس وعظات بالغات لمن أراد الآخرة !!

- سليمان عليه السلام • النمروذ
- ذو القرنين • بختنصر

مكتبة القرآن
للطبع والنشر والتوزيع
٤٠ شارع رشدى - عابدين - القاهرة
ت : ٣٩١٨٦٩١ / ٣٩١٧٣٣٢ ف : ٣٩٣٧٣٢٦

تطلب جميع منشوراتنا من الوكيل الوحيد بالمملكة العربية السعودية
مكتبة الساعى للنشر والتوزيع
الرياض - ت: ٤٣٥٣٧٦٨ فاكس: ٤٣٥٥٩٤٥ فرع جدة ت: ٦٥٣٢٠٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

نقل ابن كثير عن مجاهد وغيره : أنه قد ملك الدنيا أربعة : مؤمنان ، وكافران.

فالمؤمنان : ذو القرنين ، وسُلَيْمان. والكافران : النُّمروذ ، وبُخْتَنَصر .

ومهما يكن من أمر «مقولة» مجاهد هذه فإنها مدعاة للتفكير والتأمل ؛ فالناس على دين ملوكهم!!.

ولأمر مّا قالوا : القلب ملك ، والأعضاء جنوده ؛ فإذا صلح الملك صلحت الرعية ، وإذا صلح القلب صلح الجسد .

ولأمر مّا كان الإمام العادل على رأس السبعة الذين يُظلهم الله فى ظله يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه .

والقرآن الكريم ملىء بقصص القادة الرسل : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١].

ومن الأنبياء من تولى الملك فكان مثلاً يُحتذى ! ومن الملوك من حاجّ الأنبياء فى ربهم فكان عبرة وآية لمن خلفه على مر العصور .

ومن عباد الله من آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علمًا فكان خير معلم للأجيال .

ومن يتابع آيات القرآن يجد أنه لا يَسْرُدُ حوادث التاريخ سردًا بل يستخلص من كل قصة مئات العبر . ولا شك أن دراسة التاريخ لاستخلاص العبرة منه عنصر هام فى تكوين الشخصية الإسلامية وبنائها على أساس من القيم والمُثل العُليا ، وقد قالوا :

ليس بإنسان ولا عالم ... من لا يعى التاريخ فى صدره

ومن دَرى أخبار من قبله ... أضاف أعمارًا إلى عمره

ولقد ذكر القرآن قصة «سليمان عليه السلام» فى ست سور كما تكرر اسم «سليمان» سبع عشرة مرة.

أما «ذو القرنين» فقد أجاب القرآن عن الأسئلة بشأنه فى سورة الكهف فى ثمانى عشرة آية (من ٨٣ إلى ٩٩).

ويقول المفسرون : إن الذى حاج إبراهيم فى ربه هو «النُّمروذ» . كما يرجح المفسرون أن الذين جاسوا خلال الديار تأديبًا لبنى إسرائيل وعقابًا لهم على إفسادهم فى الأرض كانوا بقيادة «بختنصَّر» ، فما من ظالم إلا سيبلى بأظلم . والحق أن دراسة هذه الشخصيات وتلك النماذج المتقابلة يبرز معانى الحق ، والخير ، والجمال ، فبضدها تتميز الأشياء !

ومن يقرأ الآيات التى حدّثت المسلمين عن النبى سليمان ، أو العبد المؤمن الصالح ذى القرنين يجد أنها حملت بذور الحضارة والمدنية إلى المسلمين فارتقوا بها أيام مجدهم وعزهم ، ونقلها عنهم الأوربيون .

لقد كان العرب يجهلون ما تضمنته تلك القصص من أحداث فتولى القرآن إعلامهم بها : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود : ٤٩] .

وقد يَطْلُعُ علينا من يرى أن القصص القرآنى غير جديد !

ولكنا نُلفتُه إلى أن التوجيه الدينى الذى سيق لأجله هذا القصص سيظل يرسم لنا طريق العبرة ، ويضع لنا معالم الهداية ، ويجدد فينا الوعى ما كانت الحياة !

وما دمنا نعيش فى دنيانا ، ونختلط فى مجتمعنا ، ونستقبل أزمانًا وأحداثًا ، وتطالعنا الحياة فى ألوان متعاقبة ، ونستهدف لأوضاع وشئون نحتاج فيها إلى أسباب السلامة من المكاره ، والاستظلال بأسباب الأمن والطمأنينة . فلا يعتبر القصص الذى نتلوه ونتدارسه حديثًا معادًا ، ولا تعليمًا مفروغًا منه !

بل هو جديد دائما بتجدد الحياة مخافة أن تستبد بنا الحياة الدنيا ، وتشغلنا عن الأخذ بما هدتنا إليه آيات القرآن الكريم ، فتنقطع الصلة بين الناس وربِّهم .

وكيف لا يكون جديدًا وهو معجزة الله الخالدة الباقية على مر الزمن وتجدد العصور؟!

وكيف يعتبر القصص القرآنى لمجرد التذكير بما سلف دون أن يكون له واقع بيننا ؛ فنأخذ من ماضينا لحاضرنا ، وننتقل فى ضوئه من حاضرنا إلى مستقبلنا لتتواصل حلقات التاريخ .

ماض مجيد .. وحاضر مشرق سعيد .. نعبره إلى مستقبل أفضل .

وقد يظن بعض الأغرار أن القصص تاريخ محض لا صلة له بحياتنا ، وقد أصبحنا نعيش فى عصر الانفجار المعرفى وغزو الفضاء ..!

ونقول له : فى الماضى كان هناك منحرفون حاربوا الأنبياء .

أما فى الحاضر فإنهم يحاربون دعوة الأنبياء والقابضين على دينهم ؛ فراحوا يعارضون الحق بالباطل ، ويُسيمون الهُداة سوء العذاب !

ألا ليت نفحة من نفحات الله ترطب تلك العقول التى ألهبتها وساوس الشياطين ، وتقف بتلك الأفكار عند حد الاعتدال ؛ فتكون الدعوة إلى الصواب مقبولة عند أولئك المعاصرين الذين يعارضون الحق بالباطل !

ولنا فى نهاية «النمروذ» و «بختنصر» عبرة .

﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] .

وكفى بالله وليًا ، وكفى بالله نصيرًا - سبحانه - يُؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويُعزّ من يشاء ، ويُذلّ من يشاء !! تباركت ربنا وتعاليت !

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

محمد إبراهيم سليم

القاهرة فى :

ذى الحجة ١٤٠٩ هجرية

يوليو ١٩٨٩ ميلادية

من هنا نبدأ !!

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰؤُلاءِ وَهَٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴿٢١﴾ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً﴾ [الإسراء: ١٨ - ٢٢].

رجال الدولة وكيف يجب أن يكونوا ؟!

يقول الشيخ محمد عبده : "قالوا : تُصان البلاد ، ويُحْرَسُ المُلك بالبروج المشيّدة ، والقلاع المنيعة ، والجيوش العاملة ، والأُهَب الوافرة ، والأسلحة الجيدة»[١] .

قلنا : نعم هى أحراز وآلات لابد منها للعمل فيما يقى البلاد ، ولكنها لا تعمل بنفسها ، ولا تحرس بذاتها ، فلا صيانة لها ، ولا حراسة إلا أن يتناول أعمالها رجال ذوو خبرة وأولو رأى وحكمة يتعهدونها بالإصلاح زمن السلم ، ويستعملونها فيما قصدت له زمن الحرب ، وليس بكاف حتى يكون رجال من ذوى التدبير والحزم ، وأصحاب الحذق والدراية يقومون على سائر شئون المملكة يوطئون طرق الأمن ، ويبسطون بساط الراحة ، ويرفعون بناء المُلك على قواعد العدل ، ويقفون الرعية عند حدود الشريعة ، ثم يراقبون روابط المملكة مع سائر الممالك الأجنبية ؛ ليحفظوا لها المنزلة التى تليق بها بينها بل يحملوها على أجنحة السياسة القويمة إلى أسمى مكانة تمكن لها .

ولن يكونوا أهلاً للقيام على هذه الشئون الرفيعة حتى تكون قلوبهم فائضة بمحبة البلاد طافحة بالمرحمة والشفقة على سكانها ، وحتى تكون الحمية ضاربة فى نفوسهم

(١) نشرت فى العدد الحادى عشر من جريدة العروة الوثقى .
والأُهَب : جمع أُهْبَة وهى العُدّة . يقال : أخذ للأمر أُهْبَته .

آخذة بطباعهم ، يجدون فى أنفسهم منبِّها على ما يجب عليهم ، وزاجرًا عما لا يليق بهم ، وغضاضة وألمًا موجعًا عندما يمس مصلحة المملكة ضرر ، ويوجس عليها من خطر ليتيسر لهم بهذا الإحساس ، وتلك الصفات أن يؤدوا أعمال وظائفهم كما ينبغى ، ويصونوها من الخلل الذى ربما يفضى قليله إلى فساد كبير فى الملك.

فهؤلاء الرجال بهذه الخلال هم المنعة الواقية ، والقوة الغالبة ، يسهل على أى حاكم فى أى قبيل أن يكتب الكتائب ويجمع الجنود ، ويوفر العدد من كل نوع بنقد النقود ، وبذل النفقات.

ولكن من أين يصيب بطانة من أولئك الذين أشرنا إليهم عقلاء رحماء أباة أصفياء تهمهم حاجات الملك ، كما تهمهم ضرورات حياتهم ؟!

لابد أن يتبع فى هذا الأمر الخطير قانون الفطرة ، ويراعى ناموس الحياة ؛ فإن متابعة هذا الناموس تحفظ الفكر من الخطأ ، وتكشف له خفيات الدقائق ، وقلما يخطئ فى رأيه ، أو يتأود فى عمله من أخذ به دليلاً ، وجعل له من هديه مرشدًا.

وإذا نظر العاقل فى أنواع الخطأ التى وقعت فى العالم الإنسانى ، وطلب أسبابها لا يجد لها من علة سوى الميل عن قانون الفطرة والانحراف عن سنة الله فى خلقه.

وصدق الله فيما حكاه على لسان ذى القرنين وهو يعلن فى البلاد المفتوحة قانونه العادل : ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [الكهف : ٨٧ ، ٨٨].

القسم الأول

الملكان المؤمنان

- سليمان
- ذو القرنين



سليمان عليه السلام : «الصحيح أن ملكه كان عظيمًا ! ملأ الأرض .. وانقادت له المعمورة كلها» .

(الإمام القرطبى)

• داود وسليمان كما تحدث عنهما القرآن •

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل : ١٥].

أعظم النعم :

العلم أعظم النعم التى ينعم الله بها على عباده ، وشكر المنعم واجب ، فلا عجب إذا رأينا داود وسليمان عليهما السلام يعطران لسانهما بشكر الله وحمده ، ويرددان من أعماقهما : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل : ١٥] .

لقد فطن إلى فضل العلم كثير من الخلفاء والملوك فها هو ذا عبد الله الملك بن مروان يقول لبنيه : «يا بَنِيّ ، تعلموا العلم ، فإن كنتم سادة فُقْتم ، وإن كنتم وسطًا سُدْتم، وإن كنتم سوقةً عشتم ، وبالعلم يتفاضل الناس».

ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل، وقد علمنا القرآن أن نتجه إلى واهب العلم فنقول كما قالت الملائكة :

﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٢] .

وواجب العلماء أن يشكروا الله ويحمدوه على نعمه التى لا تعد ولا تحصى وعلى رأسها العلم .

يروى ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر عن يحيى بن عنبسة بن الأزهر قال : كان «محارب بن دثار» قاضى أهل الكوفة قريب الجوار منى فربما سمعته فى بعض الليالى يقول ويرفع صوته :

« أنا الصغيرُ الذى ربيتّه ؛ فلك الحمد ! وأنا الفقير الذى أغنيتّه ؛فلك الحمد ! وأنا الساغب الذى أشبعته ؛ فلك الحمد ! وأنا المسافر الذى صاحبته ؛ فلك الحمد ! وأنا الغائب الذى أعدته ؛ فلك الحمد! وأنا الداعى الذى أجبته ؛ فلك الحمد ! وأنا الجاهل الذى علمته ؛ فلك الحمد !» ربنا ولك الحمد ! ربنا حمدًا لك على كل نعمة !

فهكذا ينبغى أن يذكر أهل الفضل المنعم المتفضل عليهم وأن يقولوا فى كل وقت وحين : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل : ١٥].

والقرآن الكريم يلفت أنظار العرب إلى قيمة «العلم» وما له من أثر فى حياة الأمم

فيحدثهم عن تلك «المنحة الربانية» التى تتيح لأصحابها تفضيلاً على كثير من عباد الله.

ثم يشير إلى ما ينبغى إزاء تلك النعمة من حسن استخدامها فيما ينفع البشرية كمظهر من مظاهر حمد الله على هذه النعمة .. نعمة العلم.

إن العلم سلاح ذو حدين ، ولكن المؤمنين يحسنون استخدامه فيما ينفع البشرية ويقود خطاها نحو الحق والخير والسلام والبناء والتعمير . لا الهدم والتدمير!

ملوك بنى إسرائيل

حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد أغار بنو إسرائيل بقيادة «يوشع» خليفة «موسى» ﷺ بعد وفاته على بلاد كنعان (فلسطين وما إليها وهى الأرض المقدسة التي وعدها الله بها) واحتلوها واستولوا على جميع ما فيها من خيرات وثروات بعد أن أبادوا معظم أهلها ، واستعبدوا من أبقوا عليه منهم ، فانتهت لديهم حياة البداوة والخشونة والتنقل.

ثم لما اتسع نفوذ بني إسرائيل أصبح رؤساؤهم السياسيون ملوكًا ذوي سلطان كبير ومنهم «داود» و «سليمان» عليهما السلام[1] .

داود وسليمان يحكمان

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ... ﴾ [الأنبياء : ٧٨ ، ٧٩] .

درس فى القضاء والحكم

يذكر القرآن لنا نموذجا من نماذج الحكم الصالح القائم على الاجتهاد . لقد أوتى كل من داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ حكمًا وعلمًا ، فاجتهدا فى حكم عُرِضَ عليهما ليس فيه نص ! اجتهد داود ، واجتهد سليمان ، فللنبىِّ أن يجتهدَ فيما لم يرِد فيه نص.

والوحى قد يُقِرّه أو يُعدّله ، أو لاينزل فى شأنه بشىء فيكون تقريرًا للحكم.

وكلاهما ـ عليهما السلام ـ آتاه الله الحكمة والعلم ، فلم يخرج حكم أحدهما على ما

(١) الأسفار المقدسة ـ فى الأديان السابقة للإسلام ـ د/ على عبد الواحد وافى.

تقتضيه الحكمة حسب اجتهاده ، فكلاهما كانت له المعرفة بوجوه الاجتهاد وطرق الأحكام ، والبصر بالأمور .

وفضل سليمان راجع إلى فضل أبيه ، والوالد تَسُرُّه زيادة ولده عليه . لقد طلب الله سبحانه من نبيه أن يذكر لقومه قصة داود وسليمان وشأنهما فى قضية «غنم القوم».

لقد انتشرت غنم القوم فى زرع لآخرين ، فأكلت ما أكلت وأتلفت ما أتلفت .

وإليك خلاصة ما ذكره المفسرون فى هذه القصة : «دخل رجلان على داود ـ عليه السلام ـ أحدهما صاحب حرث ، والآخر صاحب غنم . فقال الأول : إن غنم هذا دخلت حرثى ورعته وما أبقت فيه شيئًا . فقال داود ـ عليه السلام ـ لصاحب الحرث : اذهب فإن الغنم لك فخرجا ، فمرا على سليمان ، فقال لهما : كيف قضى بينكما ؟ فأخبراه.

فقال لهما : لو كنت أنا القاضى لقضيت بأن تُدْفَعَ الغنم إلى صاحب الحرث ، فيكون له نفعها . ويزرع صاحب الغنم لصاحب الحرث مثل حرثه ، حتى إذا كان العام القابل ، وكان الحرث على هيئته يوم أُكِلَ رُدّت الغنم إلى صاحبها ، وقبض صاحب الحرث حرثَه.

وعلم داود ـ عليه السلام ـ بحكم سليمان ؛ فوافق عليه وقال : «القضاءُ ما قضيتَ!».

وبمعناه قال ابن مسعود ومجاهد ، وغيرهما : «إن ما حكم به سليمان كان إرشادًا وتوجيهًا من الله» ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ [الأنبياء : ٧٩] .

لقد أرشده الله إلى أصوب الرأيين ، وأرشد الحُكْمَين ؛ فقد اجتهد داود ـ عليه السلام ـ فى الأمر ، فرأى أن ما أكلته الغنم ، وأتلفته يقدر ويُقوّم بثمنها جميعًا فحكم بها لصاحب الحرث .

ورأى سليمان ـ عليه السلام ـ أن غير هذا أرفق بالفريقين ، وقضى بأن تُسلّم الغنم إلى صاحب الحرث فينتفع بها لبنًا وسمنًا وصوفًا ونسلاً . ويقوم صاحب الغنم على الحرث حتى يعود إلى ما كان عليه ، ثم يُرَدّ إلى كل منهما ما يملك من حرث أو غنم.

إن على الحاكم المسئول أن يجتهد فيما يُصدره من أحكام مستعينا بمستشاريه وخبرائه المخلصين ذوى البَصر بالأمور ، والله فى عونه طالما يجتهد قبل أن يصدر أحكامه !

وكم تعانى الشعوب من أحكام صادرة عن هوى بعيدة عن الحق والعدل ! وفات أولئك الذين يحكمون بغير ما أنزل الله أن العدل أساس المُلك ، وأن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون !.



قصة سليمان . عليه السلام .
كما تحدث عنها القرآن في سورة النمل

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ
الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّى إِذَا
أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا
يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى
وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا
لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ
(٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ
امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن
دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ
الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ
الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ
ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن
سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ
أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ
وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا
أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ
سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ
إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ
أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْريتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن
مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ
طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ

لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴿٤٠﴾ قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون ﴿٤١﴾ فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴿٤٢﴾ وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين ﴿٤٣﴾ قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ [النمل: ١٦ - ٤٤] .

• الاختيار الذى يصادف أهله :

جرت سنة الله فى اختيار أنبيائه أنه يعطيهم رشدهم ، ويهديهم إلى وجوه الصلاح والخير فيما يفعلون وما يدعون.

إنه سبحانه عالم بجدارتهم وأهليتهم ، فقد صنعهم على عينه ، وأعدهم ليحملوا رسالته، فزودهم بالشمائل الطيبة والسجايا الكريمة ليكون ذلك عونًا لهم على أدائها ، وعصمة لهم من أن ينالهم أحد ، أو يحط من قدرهم حسود أو حقود !

وهذا هو شأن الله ـ جل جلاله ـ فى اختيار رسله يحيطهم بكريم عنايته ، ويطهرهم من كل نقص أو عيب. فإذا صادفتك فى كتب التفسير إسرائيليات تنال من أنبياء الله ، فَعَدِّ عنها إلى غيرها ولا تتوقف عندها !

ميراث الأبوة

لقد ورث سليمان داود ، قام مقامه فى النبوة والمُلك ، وصار نبيًا ملكًا بعد موت أبيه داود ـ عليهما السلام .

لقد كان سليمان ـ عليه السلام ـ شبيهًا بأبيه ، ومن شابه أباه فما ظلم ! لقد آتاهما الله علمًا فعملا به ، وعلماه ، وعرفا حق النعمة فيه ! وقال سليمان بعد موت أبيه ، تعظيمًا وتقديرًا لنعمة الله عليه واعترافًا بهذه المنحة الربانية : ﴿يا أيها الناس علمنا منطق الطير﴾ [النمل: ١٦] .

فلقد كانت الطير تُؤَوِّب مع أبيه ، أما هو فقد علمه الله كيف يتفاهم معها !

إن العلم أساس الفضل ، والمُلك مهما عظم دونه !

فأية منزلة تلك التى ينالها عالم ملك ، أو ملك عالم ؟

وفى هذه الآية تحريض للعلماء أن يحمدوا الله تعالى على ما آتاهم من فضله ، وأن

يتواضعوا ويعتقدوا أن فى عباد الله تعالى من يفضلهم فى العلم.

ونعم ما قاله عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - حين نهى على المنبر عن التغالى فى المهور، فاعترضت عليه عجوز بقوله تعالى: ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا ﴾ [النساء: ٢٠].

لقد أعلنها فى الحاضرين عالية مدوية: «كل الناس أفقه من عمر !!» وفيه من جبر قلب العجوز، وفتح باب الاجتهاد ما فيه !!.

منطق الطير

للطير منطق يتفاهم به بعضه مع بعض، وقد عَلِمَه سليمان بن داود - عليهما السلام! تُرى كم يجد الإنسان متعة فى تبادل الحديث مع جماعات الطير !

وكم يتعلم الإنسان من الطير ؟! إن الطير أمم أمثالنا، وفى حياة الطيور دروس وتجارب !

لقد بعث الله غرابًا يبحث فى الأرض ليُرِىَ أول قاتل كيف يوارى سوءة أخيه بعدما حار كيف يواريه ؟!

وفى قصة سليمان - عليه السلام - نجد الهدهد يقول له: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ.. ﴾ [النمل: ٢٢].

ونجد النملة تُلفِتُ النمل إلى ما ينبغى اتخاذه فى مواجهة من لا يشعر بها من الأقوياء تفاديًا لما قد يكون من عدوان عليها دون شعور من المعتدى !

وقد يحلو للكثيرين أن يعرفوا ماذا تقول الطيور بعضها لبعض ؟

ويحكى خاتمة المحققين وعمدة المدققين مفتى بغداد العلاّمة الآلوسى فى روح المعانى قصة لطيفة تعطى انطباعا جميلا لمنطق الطير فيقول:

يحكى أنه - عليه السلام - مر على «بلبل» فى شجرة يحرك رأسه ويُميل ذَنَبَه فقال لأصحابه:

أتدرون ما يقول ؟ قالوا: الله ونبيه أعلم. قال: يقول: «أكلت نصف ثمرة، فعلى الدنيا العفاء !» وصاحت «فاختة»[1] فأخبر أنها تقول: «ليت ذا الخلق لم يُخلَقُوا». وصاح «طاوُس»، فأخبر أنه يقول: «كما تدين تدان» وصاح «هدهد» فقال: يقول:

(١) الفاختة: نوع من الحمام المطوق إذا مشى توسع فى مشيه وباعد بين جناحيه وإبطيه وتمايل والجمع فواخت.

«استغفروا الله يا مذنبون» . وصاح «طيطوي» فقال : يقول : «كلُّ حَيٍّ ميت ، وكل جديد بال» . وصاح «خُطّاف» فقال : يقول : «قدموا الخير تجدوه» . وصاحت «رخمة» فقال : تقول : «سبحان ربى الأعلى ملء سمائه وأرضه» . وصاح «قُمْرىّ»[1] فأخبر أنه يقول : «سبحان ربى الأعلى» . وقال «الحدأ» يقول : «إن كل شىء هالك إلا الله تعالى» . و«القطاة» تقول : «من سكت سلم» . و«البَبْغاء» يقول : «ويل لمن الدنيا همه» . و«الديك» يقول : «اذكروا الله تعالى يا غافلون» . و«النسر» يقول : «يابن آدم عش ماشئت آخرك الموت» . و«العقاب» يقول : «فى البعد من الناس أنس» . و«القُنْبرة» تقول : «اللهم العن مبغض محمد وآل محمد» . و«الزرزور» يقول : «اللهم إنى أسألك قوت يوم بيوم يا رزاق» . و«الدُّرّاج» يقول : «الرحمن على العرش استوى» .

ويقول الإمام الآلوسى بعد أن ساق هذه الحكاية : «الله - تعالى - أعلم بصحة هذه الحكاية» .

وعلى كل فلا شك أن الطير كانت تكلمه .. وأنّ ذلك كان معجزة له عليه السلام على نحو ما وقع من الهدهد مع سليمان - عليه السلام .

لقد كانت جندًا من جنوده يحتاج إليها فى التظليل من الشمس ، وفى البعث فى الأمور .

إن قوله : ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ ﴾ إشارة إلى النبوة .. وقوله : ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ إشارة إلى المُلك ، والجملتان كالشرح للميراث .

وقد كانت الطير تؤوّب مع أبيه . وقد رأينا الهدهد لا يرضى أن تسجد ملكة سبأ وقومها للشمس من دون الله ، ويبقى أن نتلقى الحكمة على ألسنة الطير أيّا ما كانت الحكاية !

هبة ملك الملوك !

يقول الله سبحانه : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٣٠] .

فيالها من هبة غالية تستحق الذكر والثناء ، وكان التقييم الإلهى تتويجًا لهذه الهبة : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ ﴾ .

(١) الخُطاف : ضرب من الطيور القواطع منتفش الذيل . والرخمة : طائر غزير الريش أبيض اللون مبقع بسواد . والقُمْرى : ضرب من الحمام .

والعبودية لله من أسمى الصفات ، وأشرف النعوت . نعت الله بها سيد الخلق رسولنا ﷺ فقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً .. ﴾ [الإسراء : ١] .

ومن يبحث يجد أن لسليمان ﷺ قربى عند الله ، وله كرامة عظيمة ، وله حسن مرجع ومأوى فى الجنة ، إلى جانب ما أعطى فى الدنيا من الملك العظيم .

إن له عز الدنيا والآخرة ، وما ذاك إلا لأنه يستحق ذلك عند ربه .. إنه أوّاب لا يفتأ يرجع إلى ربه ويذكره ، إنه نعم العبد وخير الملوك ، وسيظل الأنموذج الحىّ لكل من ملّكهم الله وأعطاهم الحكم .

إن خير الملوك من ملك الناس وامتلك نفسه ، ومن يخشى الله ، ويخشى الناس بأسه!

الفضل المبين

لقد عُلّم سليمان ﷺ منطق الطير ، وأوتى من كل شىء ، إن هذا التعليم والإيتاء لهو الفضل والإحسان المبين الواضح الذى لا يخفى على أحد .

استعراض للقوة وتفقد أفرادها :

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ ﴾ [النمل : ١٧] . جُمِعَ له عساكرُه من الأماكن المختلفة فى دولته من الجن والإنس والطير ، وجَمْعُ الجنود وتفقّدهم صورة من صور الإعداد والاستعداد لمواجهة أولئك الذين لم يدخلوا فى طاعته !

ولك أن تتصور أن المجموع من الأنواع المذكورة هو ما يليق بشأنه وأبهته وعظمته !!

أليس أحد المؤمنين اللذين ملكا المعمورة بأسرها . وإذا سلمنا صحة الخبر الدال عليه ، وسلامته من المعارض ، وأنه نص فى المطلوب فلا يستدعى ذلك سوى دخول سكان المعمورة فى عداد رعيته !!.

معسكر سليمان :

ولك أن تتخيل مدى ذلك الحشد الهائل الذى حُشر لسليمان ﷺ . لقد رأى من واجبه وهو النبى الملك أن يتفقد الإعداد والتعبئة . وكأنى به ﷺ يتخذ هذه الآية : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، شعارًا له .

ويالها من قوة ضاربة من الجن والإنس والطير .. كلهم جنود فى جيش الإيمان

سخرهم له ربنا الرحمن.

ويُعّفينا الإمام القرطبى من تتبع تلك القوة بالحصر والعد والإحصاء فيقول : «واختلف فى عسكره ومقدار جنده اختلافًا شديدًا غير أن الصحيح أن ملكه كان عظيما ملأ الأرض وانقادت له المعمورة كلها » [ج ١٣/١٦٧] وما ذكره الإمام القرطبى هو ما صرح به القرآن ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ [النمل : ١٦] .

حوار فى وادى النمل :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل :١٨] .

يتوقف «سليمان» عليه السلام عند حديث النملة ، إنها تأمر أخواتها بالدخول فى المسكن خوفًا على حياتها !!

يبدو كأن للنمل «ملكة» تخاطبه ويعمل بأوامرها ، إنها تقول كلامًا مُلفتًا للفكر والنظر.. ينطوي على حكمة كبيرة.. وهي: أن القوى قد يُهلك الضعيف بدون أن يَشعر.. فربما لو ظل النمل في مكانه لوطئته جنودُ سليمان وأعدمته .. وهو أمة كأمم الناس!!

إن النمل يتخذ الاحتياطات التى تقيه .. إنه يبنى المساكن المنظمة .. ويفر عند الهلاك ! فلم لا يتعلم بنو الإنسان منه ؟!

لماذا لا تنظر الأمم القوية إلى الإمم الضعيفة نظرة عطف ؟!

لماذا لا يصبح لقاء «وادى النمل» كنزًا للحكام والملوك يستمدون منه أصول السياسة والحكم ؟!

كم تجنى الأمم القوية فى عالمنا على الأمم الضعيفة فتدوسها ، وتُذلها ، وتمتص مواردَها ، وتستولى على خيراتها..

ألا تشكر نعمة الله عليها ، لقد منحها الله العلم وبه كانت قوتها ؟!

إن سليمان ﷺ يبتسم من قولها ويقول : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل : ١٩].

من واجب الأمم الضعيفة أن يكون فيها من ينبّه إلى الخطر ، ومن حقها أن تدافع عن مصيرها وحياتها فى مواجهته !

وعلى القوى أن يسمعَ ويَعى ويتذكر نعمَة الله عليه ؛ نعمةَ العلم ، فيقابلها بالشكر وتأمين عباد الله وخلق الله من أذاه !

فهكذا فعل «سليمان» نموذج الملك والمثل الأعلى للملوك ! لقد اجتمع له السلطان والنبوة ، الدنيا والدين ، نال ملكًا لم ينْبغ لأحد من بعده !

إن الله وحده هو واهب النعم :

ملك الملوك إذا وهب لا تسألن عن السبب

صيحة النملة قمة الإعجاب والإعجاز !

قال العلماء : إن أسلوب الآية بلغ القمة فى الإعجاب والإعجاز وبيان ذلك : ﴿يَا﴾ نادت . وبكلمة ﴿أَيُّهَا﴾ نبّهت . وبكلمة ﴿النَّمْلُ﴾ عيّنت من تريد تنبيهَه . وبقولها : ﴿ادْخُلُوا﴾ أمَرت . وبلفظ : ﴿مَسَاكِنَكُمْ﴾ نصّت . وبلفظ : ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ حذّرت . وبلفظ : ﴿سُلَيْمَانُ﴾ خصّت . وبكلمة : ﴿وَجُنُودُهُ﴾ عمّت . وبقولها : ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ اعتذرت . فيا لها من نملة ذكية بلغت غاية اللباقة حين قالت : ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ فقد قال المفسرون : إن هذا وصف لهم بالتقوى ، والتحفظ من مضرة الحيوان ؛ ولهذا تبسم سليمان ﷺ من قولها سرورًا بما سمع من ثناء النملة عليه وعلى جنوده !

حقًا إن الملافظ سعادة !!

مملكة النمل

لمحة خاطفة عن حياة النمل فى مملكته الصغيرة نستشف خلالها أنموذجًا عاليًا فى حياة الجماعة ومثلا يحتذى

قد يبدو غريبا أن تكون للنمل مملكة ، ولكن الحقيقة أن لهذه الحشرات الصغيرة مملكة قد تفوق ممالك البشر دقة ونظامًا وحسن إدارة .

وليس عجيبًا أن يرى «تشرشل» رئيس وزراء إنجلترا فى معمعان الحرب العالمية الثانية يقرأ كتابًا عن «النمل» وهو الذى قادإنجلترا والحلفاء إلى النصر على المحور «ألمانيا وإيطاليا» .

فقد عُرف النمل منذ القدم بصفاته العالية كالصبر والذكاء والمثابرة ومغالبة الشدائد والكفاح فى سبيل الوصول إلى الغاية ، وتفانى الفرد فى خدمة المجموع حتى أصبح فى ذلك مضرب الأمثال !

وإنه ليأخذك العجب حين ترى نملة تحاول أن تجر قطعة صغيرة من فُتَاتِ الخبز ، ولا تزال بها المرّة بعد المرّة فى صبر وأناة حتى تحملها فى النهاية إلى بيتها !

أما لو أعيتها الحيل ، وعجزت عن حملها لرأيت أخواتها تسرع إلى نجدتها ومعاونتها! ويعتنى النمل بنظافة مسكنه ، فتراه يحمل المواد التالفة وفضلات الطعام إلى خارجه .

وإنك لتعجب كثيرا لو رأيت ما يجرى داخل هذه المملكة الصغيرة ، فعلى رأس هذه المملكة ملكة يرهبها الجميع ، ويتوفر الكل على خدمتها .

وتتحمل النملة كثيرًا من الظروف القاسية فهى تصبر على الجوع شهورًا كاملة ، وتستطيع أن تبقى مغمورة تحت سطح الماء يومًا كاملاً ، وقد تجرح جروحًا بالغة فلا تموت . ويسود الأنواع المختلفة داخل المملكة ود وإخاء لتحيا المملكة قوية البنيان سليمة الأركان.

فنون الحرب والبناء فى عالم النمل

القيادة فن ، والحرب فن ، والبناء فن ، وقيادة تلك الحشود من الجن والإنس والطير فن ، والقائد الماهر هو الذى يمتص الآراء والأفكار من كل نبع !

لقد كان على سليمان ﷺ وجنوده عندما مروا بوادى النمل أن يتمهلوا قليلاً ففى مملكة النمل الكثير والكثير من دروس الحياة !!

يقول العالم البريطانى «جيمس جربى» : النمل والإنسان هما المخلوقان الوحيدان اللذان يمارسان الحرب المنظمة ! ففى عالم النمل تجرى الحروب الإقليمية والعالمية ، بأسلوب يشبه ما يستخدمه أرقى مخلوقات الأرض : الإنسان !

وقد وصف أحد العلماء معركة شاهدها بنفسه ومعه مجموعة من العلماء وقدم بذلك تقريرًا مثيرًا فى الاجتماع السنوى للجمعية الأمريكية لتقدم العلوم[1] .

يقول العالم الأمريكى البروفيسير برثولد هولد فى تقريره : لقد كانت الحرب ضارية، الجيشان المتقاتلان يستريحان ليلاً ، ويستأنفان المعركة عند شروق الشمس . لم يستطع أحدهما هزيمة الآخر ، واتفقا فى النهاية على إقامة منطقة محايدة بينهما ، لا يقترب منها أى فرد من الجماعتين المتقاتلتين .

هذه الحرب كانت تدور بين جماعتين من النمل الإفريقى اكتشفهما العلماء مؤخرًا .

ويرسم العالم الأمريكى صورة دقيقة لخطط وأساليب الحروب «النملية» فيقول :

إن أحد أنواع النمل يستخدم الجسور أثناء الحرب ، وهى جسور تتكون من أجسام النمل ، وتمتد عبر غصون الأشجار ؛ حتى يحقق هدفه ؛ وهو الوصول إلى شجرة غنية بما يشتهيه من غذاء ، ويعلن الحرب الخاطفة ضد النمل الذى يستوطن هذه الشجرة . إنه يستفيد من الجسور «النملية» حيث تندفع فوقها جيوش المقاتلين تدمر قلاع خصومها ، وتسيطر فى النهاية على المكان المطلوب.

ومن غرائب عالم النمل اكتشاف جماعات مسالمة تعتمد على «عرقها» فى الحصول على الغذاء ، وجماعات عدوانية تعتمد على التوسع والعدوان ، وكأنه فى اختلاف أخلاق الأنواع العديدة من النمل هدف خفى يوحى للإنسان بأنه لا ينفرد وحده بوجود الخير والشر فى أعماق شعوبه المختلفة.

(١) مجلة المختار الإسلامى العدد ١٤ السنة الثانية.

والحروب المحلية والعالمية كثيرة ، أبرزها ما حدث فى أوائل القرن التاسع عشر . ففى ذلك الحين تمكنت فصيلة عدوانية من غزو مناطق شاسعة من العالم .

انتشرت بسرعة فى شمال إفريقيا ، وجنوب أوروبا حتى وصلت لعشرات من جزر المحيط الهادى ، واستطاعت هذه الجماعة العدوانية السيطرة على مئات من أوطان النمل المسالم بعد حروب ضارية تشبه إلى حد كبير حروب الاستعمار لغزو إفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية فى نفس الفترة تقريبًا !

لكن الذكاء شبه الخارق للنمل لا يقتصر على خططه المثيرة فى الحروب ، إنما يبرز هذا الذكاء ، ويتخذ صورة تحير أعظم العلماء فى أسلوب تشييده «لناطحات السحاب» التى يعيش فيها .

وعندما اقترب العلماء من ذلك البناء الغريب اكتشفوا أنه يموج من الداخل بملايين السكان ، وعرف العلماء أنهم يطرقون أبواب إحدى المستعمرات العملاقة للنمل الأبيض. واشتدت دهشة العلماء عندما قارنوا بين ارتفاع هذا البناء وبين حجم النملة التى شيدته ، واستخلصوا نتيجة لا تقبل الشك وهى : أن «ناطحات السحاب» البشرية تصبح مجرد كوخ صغير إذا أخذنا فى الاعتبار حجم الإنسان ووزنه بالنسبة لحجم ووزن النملة! ويبدو أن القدر كان حكم وقتئذ على هذا الفريق من العلماء بالكشف عن سلسلة من الابتكارات «التكنولوجية» الحشرية تأتى تباعًا بلا توقف !

فبعد أن شاهدوا مفاجأة البناء العملاق جاءت المفاجأة الثانية ، وتجسدت فى صورة روعة الخطط الهندسية المستخدمة داخل هذا البناء.

فالنمل يحسب بدقة اتجاه الريح ، وتوجيه الأمطار ، وحركة الشمس فى الغروب والشروق ، وما يتبع ذلك من ظلال فى ناحية ، وحرارة وأشعة فى ناحية أخرى ، وحساب أثر ذلك على الجو داخل المستعمرة بحيث يكون «مكيفًا» يحقق درجة الحرارة والرطوبة الملائمة التى تضمن للسكان عدم معاناة لهيب الصيف وزمهرير الشتاء !

ووقف العلماء حائرين يتساءلون عن حقيقة خفيت عليهم وهى : أن فى «مخ» النملة ما يشبه «البوصلة» العبقرية ترشدها إلى أحدث الأساليب فى البناء وتجعل من مستعمراتها صورة فذة لفنون البناء تدفع العلماء إلى البحث عن خفايا ذلك اللغز الكبير، لغز العبقرية النادرة لهذه الحشرة فى عالم البناء وعالم التدمير ، فى الحرب ، وفى السلم .

ألم أقل لك : إن هذه الآيات من سورة النمل حملت إلى المسلمين بذور الحضارة والمدنية ولفتت أنظارهم إلى مقومات النهضة والبناء ؟

الزيارات التفقدية !!

من واجب المسئول - أيًا كان - أن ينزل إلى مواقع العمل ليتفقد رعيته ، وليعلم من أمرها ما يخفى عليه ، وليرى بعينيه ما يتخلل العمل من جد أو إهمال ، من حضور أو غياب ، من نظام أو فوضى ، من نجاح أو فشل ، لابد أن يكون له لقاءات بين طوائف مملكته فيرى بنفسه أحوالهم ويدرس مشاكلهم ويتفقدهم فترة بعد أخرى ، وهكذا فعل سليمان ﷺ ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ [النمل : ٢٠].

إن سليمان ﷺ كان يتعهد تربية الطيور ، ويعرف عددها .

إن وظيفة الهدهد «حساسة» فلابد أن يكون ملء السمع والعين ! ويصبح غيابه ملفتًا للنظر ، وداعيًا إلى التساؤل ، وتكشف هذه الزيارة التفقدية ، أو ذلك اللقاء عن «غياب الهدهد» !

لقد غاب دون «تقديم اعتذار» أوَ لاَ يعلم عقاب ما أقدم عليه ؟! إنه إذا لم يقدم عذرًا مقبولاً فسوف يتعرض إما للذبح ، أو لعذاب شديد ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل :٢١] .

ها هو ذا قادم من بعيد ، لكن لا يبدو عليه الإحساس بالذنب ، ولا الخوف من العقاب!!

لقد كان فى «مهمة» قام بها من ذات نفسه ، أليس الناس على دين ملوكهم ؟

إنه يعرف واجبه . إنه يؤمن بخالقه الأعظم.

لقد وقعت عينه على جريمة كبرى خلال رحلة استطلاعية !

لقد تفقد سليمان قواته وجنوده ليرى مدى صلاحيتها وفاعليتها وتأهبها وتكاملها وتعاونها . وقد يكون هناك أكثر من سبب لذلك التفقد ولكن المرء يقف متسائلاً :

لماذا «الهدهد» من بين ذلك الحشد الهائل ؟ أهو مهم إلى هذه الدرجة ؟

أصحيح أن الطير كانت تشكل مظلة فوق جند سليمان ﷺ فدخلت الشمس من موضع الهدهد فتبين سليمان غيابه ؟!

هل احتاج سليمان ﷺ إلى الماء ، ولم يعرف مسافته ، أو عمقه ، والهدهد دون سائر الطير هو الذى يتولى هذه المهمة ، فبحث عنه فلم يجده ؟

أكان بحق يقوم بمهمة المهندس الذى يتولى تحديد الماء بالصحارى ؟

أكان الهدهد يقوم بما تقوم به طائرات الاستطلاع اليوم فى الجيوش الحديثة ؟

هل هيأ الله لسليمان ﷺ ذلك الجندى - وإن كان من صغار خلقه - ليقوم بوظيفتين معًا :

١- وظيفة الاستطلاع العام الذى تقوم به الطائرات عامة.

٢- ووظيفة الاستشعار من بُعد ، ذلك الذى تقوم به نوعيات معيّنة من أقمار الاستكشاف لتعيين معادن الأرض وخبيئها فى باطنها من مياه وغيره ، كل ذلك يحتمله النص ، ويوحى به ، ويهدى إليه . وما دامت وظيفة الهدهد حساسة فلابد أن يكون ملء السمع وملء العين.

إن غيابه ليس كغياب غيره .. غيابه ملفت للنظر ..

إن وجوده نعمة عظيمة تستحق الشكر بإقامة الطاعة وإدامة العدل.

وهنا يجد سليمان نفسه قد فقد نِعْمَة الهدهد ، فراح يتساءل : ما لِيَ لا أرى الهدهد؟

لقد راح يتفقد نفسه ، وهذا شأن المقربين إذا فقدوا مالهم أو - آمالهم - تفقدوا أعمالهم !!

• محكمة عسكرية :

عندما يُقَصِّر الجندى فى واجبه العسكرى يحاكم ويطبق عليه قانون العقوبات ، وقد تصل العقوبة إلى الإعدام !

وها هو ذا الهدهد يغيب فى وقت الحاجة إليه ، وليس هناك من يقوم بالمهمة الخطيرة التى يقوم بها لدى القائد الأعلى ، فليوقع عليه العقاب.

ومن يتأمل قول الله تعالى : ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

يجد أن هذا الإعلان من سليمان ﷺ تقريرٌ لتوقيع إحدى العقوبتين على الهدهد الغائب عند مثوله بين يديه !

١. إما التعذيب .

٢. أو الذبح .. (وهو الإعدام).

ولك أن تتصور التعذيب بصورة أو بأخرى ، وإن كان القرطبى يرى أن الملوك يؤدِّبون بالهجران ، فيفرق بين الأليف وأليفه ! وكم كان سليمان عليه السلام عادلاً ! فقد علق حكمه بنوعيه على حجة الغائب ، والغائب كما نقول : «حجته معه» !

فلعل له عذرًا وأنت تلوم !﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ عُذْر بيّن يُبيح له التخلف ، أو بحجة واضحة تبرّر ذلك الغياب !

وقد يحلو لبعضهم أن يتوقف عند إيمان الهدهد ، ولكن الذين شهدوا «أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» يرددون عن يقين قول الله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور : ٤١].

ويرددون عن إيمان ويقين قول الله تعالى : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء : ٤٤].

ويرددون عن إيمان ويقين قول الله تعالى : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء : ٧٩] .

ويرددون عن إيمان ويقين قول الله تعالى : ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام : ٣٨].

لقد قام «الهدهد» من ذات نفسه بجولة استطلاعية فوجد قومًا يسجدون للشمس من دون الله !

ووجد أن الشيطان قد زين لهم أعمالهم فصدهم عن سبيل الله الذى يدعو إليه قائده الأعلى !

فلم لا يرصد أحوالهم ويتابع خطاهم لينقل صورة صادقة إلى سليمان ﷺ .

وحتى يكون عذره معه عند المساءلة عن التأخير وترك موقعه راح يجمع مستنداته التى تبرىء ساحته من «جريمة» الغياب بدون إذن !

وها هو ذا قادم فى طريقه إلى مملكة سليمان !

• **عودة الغائب :**

لم يغب الهدهد طويلاً ، لقد مكث غير بعيد ، ثم حضر ، ولعل الطيور أسرعت بإخبار سؤال سليمان عنه ، ووعيده إياه ! ولعله سألهم عما قاله سليمان بالحرف الواحد ليواجه الموقف !! .

وهنا وقف الغائب بين يدى سليمان ﷺ ، فقال : ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢] .

إنه يبرّر غيبته . فلقد قام بجولة استطلاعية فوصل فى استطلاعه إلى مسافة آلاف الأميال من مملكة نبى الله سليمان فى القدس وما حوله . لقد بلغ مملكة سبأ فى اليمن وأحاط بما لم يحط به سليمان ﷺ ، والعلم فضل من الله يؤتيه من يشاء ! وبه تتكامل المنافع بين عباده ، ولا يداخلنا شىء من أن الهدهد يعلم من أمر سبأ ما لم يحط به سليمان ، فالعلم من الله .

ومن قبل قالت الملائكة : ﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢] .

ووقف موسى ﷺ وهو كليم الله بين يدى عبد من عباد الله آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علمًا . وقف بين يديه ليقول له : ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦] . والسفراء والمبعوثون حينما يعودون من مهمتهم يقدمون للمسئولين بياناً مفصلا وتقريرًا واضحًا .

الهدهد يأتى بسلطان مبين :

﴿.. وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٢ - ٢٦] .

نظرة فى بيان الهدهد :

من يقرأ ما قدمه الهدهد بين يدى سليمان من حجة تُنْجيه من العقاب يجد تقريرًا مفصّلاً ، فلقد تناول التقرير عدة أمور كلها على جانب من الأهمية(١) :

١- لقد حدد نظام الحكم فى دولة سبأ : ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ [النمل: ٢٣] .

(١) مجلة منار الإسلام العدد الخامس السنة الثالثة عشرة . دراسة قرآنية .

إنها دولة ملكيّة ، وهى ملكية ليست مُطْلَقة ولكنها تقوم على الشورى .

٢- تناول الجانب الاقتصادى فى الدولة متناولا رخاء المملكة وغنى الملكة فقال : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل : ٢٣].

٣. أشار - وهو المؤمن إلى جانب على قدر من الأهمية أن الملكة - على الرغم من كفرها - أوتيت من كل شيء ، وذلك فضل الله على من كفر لعله يؤمن .

ونبى الله سليمان ﷺ أوتى من كل شيء ، وهذا فضل الله على من آمن فشكر.

٤. وتناول التقرير دين الدولة - ملكة وشعبًا - ما يعبدون من دون الله - معتمدًا فى ذلك على رؤيته ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [النمل : ٢٤] . فهو شاهد عيان.

٥ - وتناول التقرير سبب كفرهم فقال : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : ٢٤] .

وبين ما كان ينبغى عليهم تجاه الخالق المنعم العليم بما ظهر وما خفى ، رافعا شعار الإيمان فى دولة سليمان : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [النمل : ٢٦].

• قصر الملكة :

وقد وصف ابن كثير قصر الملكة ، فقال : قال علماء التاريخ : وكان عرش هذه الملكة فى قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم ، وكان فيه ثلثمائة وستون طاقة من مَشْرقه ومثلها من مغربه وقد وضع بناؤه على أن تدخله الشمس كل يوم من طاقة وتغرب من مقابلتها ، فيسجدون لها صباحًا ومساءً .

• مبادرة كريمة :

لم يكن أمام سليمان ﷺ بعد أن سمع هذا التقرير المفصل إلا أن يقول : ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [النمل : ٢٧] .

إن المبادرة بدعوة تلك الملكة وشعبها إلى الدين الحق وعبادة الله الواحد الأحد أصبحت واجبة . ولكن من يقوم بإبلاغ هذه الدعوة ؟

فليتحمل الهدهد مسئولية الإبلاغ عن رسول الله ﷺ .

وفى تكليفه ضرب لعصفورين بحجر واحد ، سيختبر سليمان أبعاد الصدق فى خبر

الهدهد من خلال الرد ، وسيتولى المهمة من لديه خبرة سابقة بمن يُبعث إليهم.

• ماذا فى الحقيبة الدبلوماسية ؟

كان فى الحقيبة «الدبلوماسية» رسالة خطية يحملها الهدهد تحت جناحه إلى ملكة سبأ ﴿ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٢٩] .

﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٣٠، ٣١]

ويا لها من مهمة شاقة ! إنه يتولى سفارة سليمان ، فلينقل إليه صورة أمينة .

إن سليمان ﷺ قد استخدم الهدهد فى البريد ، وعلى المسلمين أن يفكروا فى وسائل سريعة لحمل الرسائل .

ولقد اهتدوا فيما بعد إلى «الحمام الزاجل» حتى اهتدت الإنسانية إلى نقل البريد بالطائرات !

ألم أقل لك : إن هذه الآيات تحمل بذور الحضارة ؟!

• الخطة الشفوية والتعليمات الصادرة إلى الهدهد :

١. اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم بالطريقة التى تراها .

٢. ثم تولّ عنهم ، واترك لهم فرصة للتفكير.

٣. راقب الموقف من بعيد متابعًا انطباعهم وسلوكهم عند تلقى الرسالة.

٤. من خلال المراقبة الواعية يتسنى لك الوقوف على شئونهم ونهجهم فى الرد على الكتاب.

• الملكة .. والملك .. والسفير بينهما :

حمل السفير الرسالة من سليمان إلى بلقيس . ألقى الرسالة على سرير الملكة ! جمعت على الفور مجلس الشورى وقالت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ .

وقالت : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴾ [النمل: ٢٩ - ٣٢]

إنها ملكة عاقلة، تشرك الشعب معها، لا تستبد بالحكم، ولا تصدر قرارًا بدون مجلس شوراها، ولها رأيها وخبرتها فى إدارة شئون المملكة وتوجيه سياستها!

وكأنما تقول هذه الآية لكل المسلمين: «ما خاب من استشار».

هكذا يكون كل ملك وكل وال وكل مسئول، لقد أبدى المستشارون استعدادهم للمواجهة فهم أولو قوة وأولو بأس شديد ولكن فوضوا الأمر إليها تأدبًا!

فراحت تناقش الأمر بتعقل وحكمة: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤].

نَعَمْ، استعمار الملوك والأمم الأجنبية ذلةٌ وهوان وعبودية وفساد!

والدائرة سوف تدور علىّ إن أنا تخلفت عن إعلان إسلامى!

لقد أخذت تفكر كيف يتسنى لها مصانعة سليمان واستمالته بتحف وهدايا تبعث بها إليه وتختبر موقفه تجاهها، وما درت أن سليمان ﷺ لا يمكن أن يقبل منهم هدية مع كفرهم وقدرة جنوده عليهم!!

• موقف سليمان، عليه السلام، من هدية بلقيس:

حمل رسول بلقيس ومرافقوه هديتها «الاختبارية» إلى سليمان ﷺ، فماذا كان؟

قال سليمان ﷺ: «أتعطوننى مالا وعندى منه ومن غيره كثير؟! إن ما أعطانى الله من المال والملك والنبوة خير مما أعطاكم، فلا أطمع فى مال ولا أفرح به؛ بل أنتم الذين تفرحون بالمال الذى يُهدى إليكم وتحرصون عليه، وتطيب نفوسكم به، لقِصَر هممكم على الدنيا، وحبكم الزيادة فيها والمكاثرة والمفاخرة بها.

وكما رفض سليمان الملك المؤمن المال نجد ذا القرنين الملك المؤمن يرفض الخرج أيضًا! مقابل إقامة السد!

ويوجه سليمان ﷺ لرسول بلقيس أمره بالرجوع إلى بلقيس وقومها بالهدية وإبلاغهم رأى سليمان ﷺ فيها. وعليهم أن يبادروا بالحضور إليه مستسلمين مسلمين، وإلا فهناك من جنود سليمان. مما لا قِبل لهم بلقائها. من يخرجهم من بلادهم أذلة صاغرين أسارى مستعبدين!

ويعود رسول بلقيس إليها بالهدية ويخبرها بما أقسم عليه سليمان ، فتعرف أنه نبى لا طاقة لها بقتاله ، وتعد العدة للسير إليه ، ويعلم «سليمان» عليه السلام بخروجها إليه فيقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : ٣٨] .

من منكم يستطيع أن يحضره عندى على حاله التى هو عليها قبل أن تأتينى هى وقومها منقادين طائعين ؟!

إن سليمان ﷺ أراد أن يريها القدرة التى مكن الله - تعالى - له فيها ، والآيات التى أيده بها لترى ما يجرى على يديه من عجائب وغرائب .

وربما قد أراد تكريمها وأن يحتفظ لها بمكانتها ما دامت قد جاءت مسلمة فلم لا يكون عرشها فى انتظارها ؟!

وربما أراد من إحْضَار العرش أن يختبر عقلها ودقة إدراكها للأمور ليرى أتعرفه أم تُنْكره بعد أن غير من معالمه وبدل فى أوضاعه.

وحاشاه - وهو الذى رد الهدية - أن يفكر فى الاستيلاء عليه قبل أن يعصم الإسلام منه أنفسهم وأموالهم ؛ فذلك لا يناسب مقام النبوة . ولا ينبغى أن نأبه لمثل تلك الأقاويل ! فما كان سليمان بالطامع فى العرش وقد آتاه الله ما آتاه !!

وتلقى سليمان الإجابة . فقد أجاب مارد من مردة الجن الأقوياء : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ [النمل : ٣٩] .

لقد كان سليمان يجلس للنظر فى أمور الدولة وأحوال الرعية قدرًا من النهار إلى أن تزول الشمس وقت الظهيرة ، وبدأ هذا العرض من جانب العفريت غير مُرْضٍ لسليمان، وكأنما بدت هذه المدة طويلة بعيدة فى نظر سليمان على الرغم مما أبداه العفريت من قوته وتمكنه وأمانته .

وهنا جاء عرض آخر ممن عنده علم من الكتاب بعد أن سمع مقالة العفريت ، وكأنما أحس بمشاعر سليمان ﷺ تجاه العرض الأول فراح يعرض عرضًا فيه ما يحقق رغبة سليمان ﷺ قائلا : أنا آتيك به قبل أن يرجع إليك بصرك حين تمده فى الفضاء لتنظر شيئًا بعيدًا أمامك .

تُرى من هذا الذى عنده علم من الكتاب ؟

أهو آصف بن برخيا وزير سليمان ، وكان مفتاح علمه بالكتاب هو اسم الله الأعظم

الذى إذا دعى به أجاب ؟!

أهو الخضر عليه السلام ؟

أهو جبريل عليه السلام ؟

أهو مَلَك أيده الله به ؟

أم هو سليمان - عليه السلام - نفسه ، وكأنه قال ما قال ليُرى الحاضرين أنه يتهيأ له ما لا يتهيأ لعفاريت الجن فضلاً عن غيرهم ؟

والمفسرون يؤيدون الرأى الأخير بشكر سليمان لربه : ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي ﴾ [النمل : ٤٠]

وسواء أكان الذى عنده علم من الكتاب سليمان أم غيره ، فإحضار العرش على هذه الصورة مَثَلٌ عالٍ لقدرة الله - تعالى - أظهره إما معجزة لنبى ، أو كرامة لولى ، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

فلما رأى سليمان ﷺ العرش حاضرًا أمامه قارًّا فى موضعه حيث أراد قال : هذا النصر والتمكين مما تفضل به علىّ ربى ليتعبّدنى ويختبرنى أأشكر نعمته علىّ أم أكفرها ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، فسوف يعود عليه النفع حيث استوجب بشكره تمام النعمة ودوامها والمزيد منها لقوله تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧].

والشكر قيد النعمة الموجودة ، وصيد النعمة المفقودة ، ومن كفر فلم يشكر النعمة ، وأبطرته فإن الله غنى عن شكره ، كريم فى تفضله على خلقه ، يرزق البارّ والفاجر ، والشاكر والكافر ، وحسابهم يوم تُبلى السرائر .

- **تنكير العرش :**

من علوم الحرب الحديثة «التمويه والتنكير» وقد أراد سليمان - عليه السلام - أن يضيف إلى مفاجآتها بوجود العرش اختبار ذكائها ﴿ نَنظُرْ أَتَهْتَدِي ﴾ [النمل : ٤١] .

وتحدثنا بنعمة الله فى تسخير العلوم ، وتقدم الفنون إذ كان التنكير بزيادة الفخامة من دقيق الصنعة وغريب الفنون .

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ﴾ [النمل : ٤٢] .

لقد كان جوابها فى مستوى السؤال الموجه ، فلم تَنْفِ ولم تؤكد .

وشتان بين عالم مسلم وغير مسلم ، فإذا اجتمع العلم مع الإيمان عَمُرَ الكون بالخير

والنساء ، ومن أجل هذا تحدث سليمان بنعمة الله قائلاً : ﴿ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : ٤٢].

أما هى فلم تهتد من قبل إلى الإيمان فقد صدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين .

إن الكُفر يعمى البصر ، ويطمس البصيرة ، فلقد حال دون تعجيل إظهار إسلامها وتصديقها برسالة سليمان .

• مفاجأة :

وبعد أن ظهرت رجاحة عقلها ودقة إدراكها للأمور قيل لها : ادخلى القصر !

وكان سليمان ﷺ قد أمر الجن قبل قدومها فأعدوا لها «قصر الضيافة» من زجاج أبيض أملس تجرى من تحته المياه ، تتراءى فيها الأصداف والحيتان ، وفى صدر الصرح سرير سليمان يجلس عليه لتشهد عظمة أمره وتتحقق من نبوته فتزداد ثباتًا على دينه!

وبدا لها الصرح كما لو كان ماء عليها أن تخوضه ، وهنا كشفت عن ساقيها محاذرة أن تبتل ثيابها ، ورأى سليمان منها ذلك وأحس دهشتها فأعلمها أنه صرح أملس من زجاج أبيض صافٍ .

علمت بلقيس أن الإيمان يفعل الأعاجيب ووجدت أمامها قدرة فائقة ونعمة سابغة على سليمان فقالت : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ [النمل : ٤٤] ، بما أضعته من عمرى فى عبادة الكواكب .

وراحت تعلن إسلامها مع سليمان لله رب العالمين .

هذه قصة سليمان مع بلقيس كما تحدث بها القرآن .

أما ما خاض فيه القُصّاص ، وأوغل فيه خيال الرُّواة حول الصرح الزجاجى ودوافع سليمان ﷺ لإنشائه فتلك سموم نفثتها أقلام بنى إسرائيل ، ورددتها فى بلاهة ألسنة الرواة ، فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون.

أما بعد ..

فإن سليمان ﷺ كما أورد القرآن قصته كان صاحب دعوة إلى الإسلام ، وجهها إلى ملكة «سبأ» ولم يكن صاحب مطمع وشهوة فى جمال أو متعة جسدية.

وليس فى ألفاظ القرآن ومعانيه الخاصة بهذه القصة ما يشير - ولو من بعيد - إلى هذا الظن الأثيم بنبى الله سليمان .

وكل ما فى الأمر أنه أوتى مُلكًا لم يؤته أحد من بعده ، وسخرت له الرياح والشياطين، وكان قصره مشيدًا على أجمل وأكمل مثال من الزخرف ، وعندما دخلت الملكة «بلقيس» عليه ظنت الصرح الممرّد من قوارير لجة ماء فكشفت عن ساقيها !

ولم يكن لسليمان ﷺ مقصد من ذلك ، وحاشاه .. إنما هو امتحان ذكائها وفطنتها، أو إظهار قوة ملكه ومنعة سلطانه .

وقد سبق أن هدد ملكة سبأ بهذا السلطان عندما بعثت إليه بهدية محاولة أن يسالها ويتركها فى ملكها وبين قومها فقال لرسولها : ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [النمل : ٣٧] .

وها هى ذى تشاهد مظاهر السلطان والقوة والمنعة وترى بعينيها ما وهبه الله لسليمان ﷺ إنه الإيمان .

ويبقى الهدهد بيننا يذكرنا كلما رأيناه بالمهام الخطيرة ، والسفارة الأمينة ، والوفاء العظيم.

ولعلك تشتاق إلى معرفة شىء عنه :

مع الهدهد

يحب مقر الإنسان ، ولذا نراه أينما كان . صياحه جذاب وعُرفه ذو الأولان يُثير العجب العُجاب ! عندما تراه يمشى مزهوا على حائط من الطين تجده يرفع تاجه الكبير المستدير من الريش بين الحين والحين ! آلف مألوف تجده رائمًا وفاتنًا حينما يطلق نداءه المعروف . يزور الحدائق فى الخريف والشتاء ، ولديه خير كثير أنّى راح وأنّى جاء !

وننتقل من أحد نماذج الطير إلى الخيل ، والخيل معقود بنواصيها الخير .. فتعال نشهد العرض الكبير لسلاح الفرسان !

• مع سليمان عليه السلام •
كما حدثنا عنه القرآن فى سورة «ص»

وكما وصف ربنا - سبحانه - سليمان ﷺ بأنه : ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ وصفه بأنه ﴿أَوَّابٌ﴾ .

والأوَّاب : الرَّجّاع ، أى : كثير الرجوع بالتوبة إلى الله ، أو كثير الرجوع إلى تسبيح الله وتنزيهه .

• مثل من أمثلة رجوعه :

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ [ص: ٣١] . إن ربنا - سبحانه وتعالى - يُذَكِّر نبينا محمدًا ﷺ بما كان من أمر سليمان فى استعراضه الخيل فى منتصف النهار ، وخيل سليمان كانت أصيلة عريقة وصفها ربنا سبحانه بصفتين :

١- صافنات .   و ٢- جياد .

لقد جمعت بين صفتين حميدتين :

- فإذا وقفت كانت صافنة ساكنة مطمئنة فى موقفها .

- وإذا جرت كانت سراعًا خفافًا فى جريها .

• عرض لسلاح الفرسان :

إن سليمان ﷺ كان نبيًا ملكًا ، فتح عينيه على مُلك أبيه داود - عليه السلام - ورأى دعائم القوة فى مملكة أبيه ، فأحب الخيل الصافنات الجياد !! للدور الذى تؤديه فى رفع راية الحق والخير والسلام ! أحبها لما لها من أثر كبير فى تحقيق النصر على أعداء الله.

نعم أحبها فى حياة أبيه للدور الكبير الذى تؤديه ، وعندما آل المُلك إليه أعطاها عناية خاصة ورعاية كريمة .

لقد راح يستعرضها فى منتصف النهار وهى الصافنات الجياد . إنها تجمع بين الصُّفُونة والجودة ! فإذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة .

وإذا جرت كانت سراعًا خفافًا فى جريها.

إن حصان الفارس أجمل ما يحب أن يراه . وأجمل شىء لديه أن تُعرض خيله عليه !

لقد عُرضت عليه - وهو الملك - ليعلم مدى قدرتها ، ويقف على حُسن تدريبها ، ويطمئن بنفسه على قدرتها وقوتها على خوض المعارك التى يتطلبها مُلك صاحب رسالة..

إنه يريد أن يحقق بها النصر على أعداء الله !

إنه يريد أن يبث الرعب فى قلب أولئك الأعداء !

إنه يريد أن ينشر كلمة الله ويبلغها فى أرجاء المملكة !

إنه لا يحبها لأجل زينة الحياة الدنيا وزخرفها ، ولكن حبه لها لأمر الله - تعالى - وإعزاز دينه .

لقد مدح ربنا الخيل فى التوراة ، مدح ربطها وإمساكها على الثغور والحدود فى مواجهة الأعداء ، وها هو ذا سليمان ﷺ يحبها لذلك . ظل سليمان ﷺ يستعرضها حتى توارت بالحجاب ، لقد غابت عن بصره ، ولا عجب فهى الصافنات الجياد !

إن سليمان ﷺ أوَّاب لقد تذكر نعمة الله عليه ، فطلب من الرائضين للخيل والقائمين على شأنها أن يردوها عليه ، ويعيدوها إليه !

فلما عادت جعل يمسح سوقها وأعناقها تشريفًا وإعزازًا لها وشفقة عليها وإظهارًا لمكانتها !

أليست من أعظم ما يساعد المجاهد ويعاونه فى دفع عدوه والانتصار عليه .

- **إن الخيل معقود بنواصيها الخير !!**

لقد أبدى سليمان ﷺ كمال التواضع فى مباشرة ذلك الأمر بنفسه .

أليست الشفقة على الحيوان من أسمى صفات الإنسان ؟!

أليس الأنبياء قدوة لأقوامهم وأتباعهم ليتأسَّوْا بهم ؟!

أليس الناس على دين ملوكهم ؟!

فما له لا يستعيد عرضها عليه ، وردَّها إليه ؟!

- **العلاقة بين الإنسان والخيل :**

هناك علاقة قديمة بين الإنسان والخيل ، وعلى مر الأيام تزداد تلك العلاقة عمقًا ومتانة وتأصيلاً!

ويتوقف المرء طويلا أمام ما تلقاه الخيل من عناية ورعاية تفوق غيرها من سائر الحيوانات .

وفى رحلة البحث عن الأسباب الحقيقية التى تقف وراء تلك العلاقة الحميمة بين الإنسان والخيل لا يكاد يخلو حديث من الإشارة إليها ، والإشادة بها فى شعرنا العربي.

والحقيقة أن الخيل تجمع كل الصفات المنشودة فى الحيوان ، وقلما تجتمع فى غيرها .

وقد تناولتها آيات القرآن وأشاد بها الحديث الشريف ، وتواترت الأخبار بحب الأنبياء لها !

فقد ورد ذكر الخيل فى أكثر من آية من آيات القرآن الكريم كلها ترفع من قدرها على غيرها من الحيوانات الأخرى .

كما أقسم الله سبحانه بها وهو خالقها ومبدعها ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ [العاديات : ١].

وقد كان لرسول الله ﷺ خمسة أفراس .

وكان نبى الله داود يحب الخيل كثيرًا فلم يكن يسمع بفرس أصيل إلا بعث إليه حتى جمع ألف فرس لم يكن فى الأرض يومئذ غيرها !

وروى ابن الكلبى : أن أول من ركب الخيل واتخذها : إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

وروى الواقدى : أن أول من ركب الخيل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وأنّها كانت وحشًا لا تطاق حتى سُخّرت لإسماعيل.

ويكفى فى هذا المقام أن نذكر الحديث النبوى الشريف : «**الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، وأهلها معانون عليها ، والمنفق عليها كالباسط يده بالصدقة**[1] ».

ابتلاء وامتحان :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [ص : ٣٤] .

(١) مجلة الفيصل السعودية بتصرف . والحديث . قال النجم : رواه أحمد والشيخان والنسائى وأبو داود وابن ماجة عن عروة بن الجعد ، وهؤلاء ومالك عن ابن عمر ، والبخارى عن أنس ، ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة عن أبى هريرة ، ثم قال : وعند الطبرانى عن جابر بلفظ : الخيل معقود فى نواصيها الخير واليمن إلى يوم القيامة وأهلها معانون عليها.

فى الآية فتنة واختبار ، وجسد مُلْقىً على كرسىّ سلميان . وإنابة ورجوع إلى الله بعد حين . ويتوقف كل مسلم متسائلاً : ما هذه الفتنة ؟ وما ذاك الجسد ؟

ولما جاءت الإنابة متأخرة نوعًا مًّا ؟! ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ .

لقد جرى بعض المفسرين وراء خيالات وإسرائيليات ، وهى أخبار غير موثوق بها ، ولا تطمئن نفس المسلم إليها ، ومن الخير ألا نشترك فى ذكرها !

وخير ما ورد فى تفسير هذه القصة ما قاله رسولنا ﷺ حيث قال : «قال سليمان : **لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله . ولم يقل «إن شاء الله»! فطاف عليهن فلم يحمل إلا امرأة جاءت بشقِّ رجل ! والذى نفسى بيده لو قال : «إن شاء الله» لجاهدوا فى سبيل الله فرسانًا أجمعون».**

فكانت هذه فتنة سليمان ! إذ أنه لم يقل «إن شاء الله» .

وهذا هو الصحيح الذي جاء به الصادق المصدوق ﷺ (أخرجه البخارى وغيره عن أبى هريرة) .

إن سليمان أوّاب ، إن سليمان نِعْمَ العبد ، إنه يستعرض الخيل فيستهويه حُبّها من أجل ذكر ربه، إنه خيل جياد !!

وليس كل من ركب الجواد فارس ، فليكن لهذه الخيل فرسانها الأمجاد سليلو المُلك والنبوة ، ويالها من نوايا طيبة ، وأمنيات غالية ، لكن كل شىء بإرادة الله ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله ، لقد حلف ليأتين بسبعين فارسًا ، وفَاتَهُ أن يُقَدِّم المشيئة ، وفى البدء تكون المشيئة.

وهناك موقف مشابه مرّ به نبينا ﷺ يدور حول المشيئة ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ . . ﴾ [الكهف : ٢٣ ، ٢٤].

- **شقّ على كرسى سليمان :**

ولدت إحداهن «شقًّا» وطرحته القابلة على كرسيه لتُريَه إياه ، وهنا ألقى الله فى رُوعه وقذف فى قلبه ، أنه قد فُتِن وامتُحن وابتُلى ، وهنا فقط وقف على سبب ذلك ، فما كان منه إلا أن أناب إلى الله ورجع إلى ربه تائبًا مستغفرًا عن هذه الزلة التى فرطت منه ، لقد نسى أن يتجه إلى الله فى منحه تلك الذرية التى تعينه على الجهاد فى سبيل الله بأن يقول : «إن شاء الله» .

إن معرفة هذه الزلة لم تتم إلا بعد الحَمْل والولادة ، ولهذا عبر القرآن عن ذلك فقال ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ .

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [ص : ٣٥] .

لقد أناب سليمان إلى الله ، فها نحن نراه يقول : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي ﴾ . لقد دعا ربه أن يغفر له ويصفح عنه ، ولا يعاقبه أو يحاسبه على ما بدر منه من ترك ما هو أولى به أن يفعله . ولكنه ، يشفع الاستغفار بطلب الملك . أليس كما قال الله فيه : نعم العبد ؟!

ومن كمال العبودية أن يقدم العبد الاستغفار بين يدى طلبه ، ليُمحى أثرُ الذنب ويكون دعاؤه أرجى للقبول.

إنه هنا يطلب أمرًا عظيما من ربه فهو على ثقة به !

لقد طلب منه أن يمنحه مُلكًا عظيمًا لا يدانيه مُلك أحد غيره ، ولا يُسلب منه ويعطى لسواه .

لقد طلب سليمان من ربه ذلك واستوهبه إياه ، لتكون استجابة الله له أمارة على قبول إنابته ، وعلامة على غفران الله له ما تركه من النطق بقوله : «إن شاء الله» عندما أحب أن تأتى نساؤه بفرسان يجاهدون فى سبيل الله !

وسواء طلب سليمان من نفسه أو طلبه بناء على أمر من الله سبحانه ، فقد علم أنه لا يستطيع أن يضطلع بهذا الملك ويقوم على تصريف أمره وسياسته وتدبير شأنه أحد غير سليمان.

فكان أن امتثل وطلبه من ربه فاستجاب له ومنحه إياه .

وها هو ذا يختم دُعَاءَه بقوله : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ . إنه اعتراف مؤكد من سليمان بأن الله ـ جلا علاه ـ هو وحده صاحب العطاء الواسع الكثير ، وليس لأحد سواه .

• الإنعام الأول على الملك •
من ملك الملوك

[١]

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨١]

[٢]

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص : ٣٦] .

[٣]

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ .. ﴾ [سبأ : ١٢].

هذا هو الإنعام الأول الذى خص الله به سليمان ﷺ لقد سخر الله له الريح شديدة الهبوب ، فلا يعوقها عائق ولا يقف شىء دون سيرها فهى تتخطى كل ما يعترضها وتتغلب عليه .

إنها تجرى بأمره ، تطيعه وتنْقاد له ، فإن أرادها سريعة شديدة أسرعت واشتدت ، وإن أرادها هادئة غير سريعة كانت على وفق ما يريد .

تتجه وفق مشيئته به وبرجاله فى ليل أو نهار إلى الأرض التى بارك الله فيها إلى أرض الشام حيث جعلها الله مكانًا للخصب العميم ، والخير الوفير ، والماء الكثير ، والشجر النضير.

وهى فوق ذلك مَهْبِط كثير من الرسالات ، ومهد معظم الأنبياء ، فالبركة تشملها حسًّا ومعنى .

إن الله خالق كل شىء وعالم بطريقة تسخيره وتدبير أسبابه وآثاره ؛ فلهذا سخر لسليمان كثيرًا من مخلوقاته التى تعجز قدرة سليمان عن أن تُسيطر عليها . وكل ذلك إنما يجرى حسب ما تقتضيه حكمة الله ويحيط به علمه . لقد يسر الله له الريح فور

دعائه تطيع أمره ولا تتأبَّى عليه . كانت تسير وتجرى بأمره حيث يريد سيرًا لينًا لا اضطراب فيه ، ولا اهتزاز ، وذلك مع شدة سرعتها وعصفها فى جريها.

فلقد جمع الله له فيها بين اللين وسرعة الجرى وهما لا يجتمعان غالبًا ؛ فالمسير الشديد السريع تصحبه اهتزازات عادة.

وكما ركب سليمان ﷺ الريح وسخرها فى إنجاز مهماته . ركب سيدنا محمد ﷺ البراق ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . ولا حرج على فضل الله الذى يقول للشىء «كن فيكون».

لقد كانت الريح أول النهار تقطع مسيرة شهر وتجرى بالعَشِىّ آخر النهار مسيرة شهر ، فكانت تسير فى اليوم مسيرة شهرين للراكب.

أخرج أحمد فى الزهد عن الحسن أنه قال فى الآية : «كان سليمان - عليه السلام - يغدو من بيت المقدس فيَقيل باصطخر ، ثم يروح من اصطخر فيقيل بقلعة خراسان».

النعمة الثانية
تسخير الجن له

وهذه هى النعمة الثانية التى اختص الله بها سليمان - عليه السلام .

لقد سخر الله لسليمان بعض الشياطين من الجن ، وهم المردة ينزلون فى أعماق البحار ، يستخرجون له من الجواهر النفائس ما يحتاج إليه مُلكه . ومن الشياطين من يعملون عملاً دون ذلك من بناء المدن والقصور والحصون ، ويصنعون الصنائع العجيبة .

إن هذا التسخير كان يجرى تحت الرعاية الإلهية لكيلا يزيغوا عن أمر سليمان أو يفسدوا ما عملوه أو يضروا رعيته .

وكان أمرهم معه كما قال تعالى : ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[سبأ : ١٢]. وسخر له بعضًا آخر يغوص فى البحار يجلبون له ما حوته من اللؤلؤ والمرجان !

أما طُغَاتُهم فقد قرن سليمان بعضهم ببعض فى الأصفاد والقيود ، أو قيّد كلَّ واحد منهم على حدة اتقاءَ شره ومنعًا لأذاه. سُلطات واسعة وتفويض بغير حساب فى شأنهم ! لقد فوض الله إليه أمر الشياطين وأطلق يديه فيهم .

أليس هو : نعم العبد ؟!

ألم يقل الله عنه : إنه أوَّاب ؟!

نعم .. له الخيار فى أمر الشياطين : يمسك من شاء فى خدمته ويُقَيِّد من أراد من المردَة فى الأصفاد ! ويُطلق سراح من أحب ، فلا عتابَ ولا تثريبَ عليه ! إن الله - سبحانه - قد اصطفاه ، وهو أعلم بحسن تصرفه فيما فوضه إليه !

سليمان والشياطين فى القرآن

الشيطان : كل عاتٍ متمرد من الإنس والجن والحيوان .

والشيطان : مخلوق خبيث لا يُرى ، يغرى بالفساد والشر.

- **الشياطين والسحر :**

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ .. ﴾ [البقرة : ١٠٢]

بعض الأعمال التى كانت تقوم بها الشياطين لسليمان ـ عليه السلام .

﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٢].

﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ [ص : ٣٧].

الأنواع الشريرة من الشياطين :

﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ [ص : ٣٨].

﴿ هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص : ٣٩].

﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص : ٤٠].

نماذج للأعمال التى كانت تقوم بها الجن

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣].

يجد القارئ الكريم فى هذه الآية تفصيلاً لما يقوم به الجن من الأعمال لسليمان - عليه السلام .

إنهم يعملون له ما يشاء من محاريب ، من قصور حصينة ، ومساكن طيبة ، ومنازل شاهقة ، أما التماثيل فهى جمع تمثال ، ويقول الزمخشرى : إنها كانت تصنع من نحاس وصُفْر وزجاج ورخام وغيرها ليراها الناس فى وضع من أوضاع العبادة فيعبدوا مثل عبادتهم ، وكان اتخاذ الصور جائزا فى شرعهم كما قال الضحاك وأبو العالية .

وكانوا يعملون له أيضا ما يشاء من «جفان» تتخذ أوعية للطعام وهى أعظم القصاع ، وهى جمع جَفْنة .

وكانوا يعملون له ما يشاء من الجوابى وهى جمع جابية ، يجبى إليها الماء وهى إناء خاص كبير الحجم يملأ ماء .

وكانوا يعملون له ما يشاء من قدور يطبخ فيها وتظل راسية ثابتة فوق التنور لعظمها .

وكل هذه الأدوات والآلات تعطيك الصورة المناسبة للإمكانات المتاحة لسليمان - عليه السلام - وجنوده فى أدوات الطعام والشراب ، والمسكن والمآب .

وروى ابن أبى الدنيا والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن مسعود قال : «لما قيل لهم : اعملوا آل داود شكرًا ؛ لم يأت ساعة على القوم إلا وفيهم قائم يصلى» .

وجاء فى رواية ابن أبى حاتم عن الفضيل أنه - عليه السلام - قال : يارب كيف أشكرك ، والشكر نعمة منك ؟! قال - سبحانه : «الآن شكرتنى حين علمت النِّعمَ منى» !

عينُ القِطر (النحاس)

لقد أجرى الله لسليمان معدن النحاس بعد إذابته ! وكما ألان لداود الحديد ، جعل - سبحانه - النحاس ينبع ويسيل كما ينبع الماء من العين ، فلذلك سمّى «عين القِطْر» .

لقد كانوا يمارسون الانتفاع به وهو بارد ولم يذب ولا لان لأحد قبله !

إن القرآن يلفت الأنظار إلى مقومات النهضة الصناعية ، فعلى الحديد تقوم الصناعات الثقيلة وهى صناعة المصانع ، وللنحاس استخداماته الهامة !

ألم يقل الله - سبحانه - : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [الحديد : ٢٥] .

ألم يقل الله : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ [سبأ : ١٠] .

إن صب النحاس على الحديد يعطيه قوة وصلابة ، ونجد ذلك فى قصة ذى القرنين وهو يقيم السد وبعد أن أصبح الحديد منصهرًا قال :

﴿آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦].

ألم أقل لك: إن آيات كثيرة حملت بذور الحضارة والنهضة إلى المسلمين فأقاموا نهضة، وأنشئوا حضارة! نقلها الغرب عنهم حين التقى بهم فى الأندلس، أو فى الحروب الصليبية.

وقليل من عبادى الشكور!

قال ابن عباس: الشكور هو الذى يشكر على أحواله كلها.

وفى الكشاف: هو المتوفّر على أداء الشكر الباذل وسعه فيه، وقد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه اعترافًا واعتقادًا وكدحًا، وأكثر أوقاته.

وقيل: من يرى عجزه عن الشكر، وقد نظم بعضهم هذا فقال:

إذا كان شكرى نعمةَ الله نعمةً ... علىّ له فى مثلها يجب الشكرُ

فكيف بلوغُ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتسع العمرُ

إذا مَسّ بالنعماء عَمّ سرورُها ... وإن مَسّ بالضراء أعقبها الأجر

ومن بدائع التنزيل هذه المواءمة بين ما منَّ الله به على داود وما مَنّ به على سليمان عليهما السلام، فإن الله ذكر ثلاثة أشياء لداود، وثلاثة أشياء لسليمان وناسب بينهما:

- فالجبال المسخرة لداود يناسبها الريح المسخرة لسليمان.
- وتسخير الطير يناسبه تسخير الجن.
- وإلانة الحديد تناسب إسالة النحاس.

وهكذا تتقارب النعم بينهما.

- **معجزات داود ومعجزات سليمان:**

لقد كانت الحجارة تسبح مع داود! وألان الله له الحديد!

أما سليمان ﷺ فقد سخر الله له الريح والشياطين!

ويقول الفخر الرازى تعليقًا على تسبيح الحجارة وإلانة الحديد لداود، وعلى تسخير الريح والشياطين لسليمان عليهما السلام:

اعلم أن أجسام العالم إما : كثيفة أو لطيفة .

أما الكثيف : فأكثف الأجسام الحجارة والحديد ، وقد جعلهما الله معجزة لداود . عليه السلام : فأنطق الحجر ، وليّن الحديد . وكل منهما كما يدل على التوحيد والنبوة يدل على صحة الحشر ، لأنه كما قَدَرَ على إحياء الحجارة فأي بُعد في إحياء العظام الرميمة ؟!

وإذا قدر على أن يجعل في إصبع داود ﷺ قوة النار مع كون الإصبع في نهاية اللطافة ؛ فأي بُعد في أن يجعل التراب اليابس جسمًا حيوانيًا ؟

والطف الأشياء فى هذا العالم : الهواء والنار ، وقد جعلهما الله معجزة لسليمانَ ﷺ أما الهواء فقوله تعالى : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ ﴾ [ص : ٣٦] .

وأما النار ، فلأن الشياطين مخلوقة منها ، وقد سخرهم الله تعالى له ، فكان يأمرهم بالغوص فى المياه وهم ما كان يضرهم ذلك ، وذلك يدل على قدرته تعالى على إظهار الضد من الضد . اهـ.

دفاع عن سليمان
يتولاه القرآن فى سورة البقرة

سليمان . عليه السلام . فى رأى اليهود :

قال ابن إسحاق : لما ذُكرَ سليمان بن داود فى المرسلين قال بعض أحبار اليهود فى المدينة : ألا تعجبون من محمد ؟ يزعم أن سليمان بن داود كان نبيًا ، والله ما كان إلا ساحرًا !.

فانزل الله تعالى فى ذلك : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ [البقرة : ١٠٢]، أى باتباعهم السحر وعملهم به .

قصة هاروت وماروت
والفرق بين السحر والنبوة والمعجزة

روى الإمام السيوطى فى «الدر المنثور» فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ ﴾ [البقرة : ١٠٢]، روايات كثيرة ، وقصصًا عجيبة رويت عن ابن عمر ، وابن

مسعود ، وعلى ، وابن عباس ، ومجاهد ، وكعب ، والربيع ، والسُّدى ، رواها ابن جرير الطبرى فى تفسيره ، وابن مردويه ، والحاكم ، وابن المنذر ، وابن أبى الدنيا ، والبيهقى ، والخطيب فى تفاسيرهم وكتبهم .

وقد حكم بوضع تلك القصة - التى ذكروها - الإمام أبو الفرج بن الجوزى ، ونص الشهاب العراقى على : أن من اعتقد فى هاروت وماروت أنهما ملكان يعذبان على خطيئتهما : فهو كافر بالله العظيم .

وقال الإمام القاضى عياض فى «الشفاء»: وما ذكره أهل الأخبار ، ونقله المفسرون فى قصة هاروت وماروت لم يرد فيه شىء لا سقيم ولا صحيح عن رسول الله ﷺ ، وليس هو شيئا يؤخذ بالقياس .

وكذلك حكم بوضع المرفوع من هذه القصة : الحافظ عماد الدين بن كثير . وأما ما ليس مرفوعا فبين أن منشأه روايات إسرائيلية أخذت عن كعب وغيره .

وليس فى الآية ما يدل - ولو من بُعد - على تلك القصة المنكرة .

• السبب في نزول الآية :

فليس السبب فى نزول الآية ذلك ، وإنما السبب : أن الشياطين فى ذلك الزمن السحيق كانوا يسترقون السمع من السماء ، ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ، ويُلقونها إلى كهنة اليهود وأحبارهم ، وقد دونها هؤلاء فى كتب يقرءونها ، ويعلمونها الناس ، وفشا ذلك فى زمن سليمان - عليه السلام - حتى قالوا : هذا علم سليمان ، وما تم لسليمان مُلكه إلا بهذا العلم ، وبه يسخر الإنس والجن والريح الذى تجرى بأمره ، وهذا من افتراءات اليهود على الأنبياء ، فأكذبهم الله بقوله : ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]. ثم عطف عليه : ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ ، فالمراد بما أنزل هو : علم السحر الذى نزلا ليعلماه الناس حتى يحذروا منه . فالسبب فى نزولهما هو : تعليم الناس أبوابًا من السحر ، حتى يعلم الناس الفرق بين السحر والنبوة ، وأن سليمان لم يكن ساحرًا وإنما كان نبيا مرسلا من ربه .

وقد احتاط الملكان - عليهما السلام - غاية الاحتياط ، فما كانا يعلمان أحدًا شيئا من السحر حتى يُحَذّراه ويقولا له : إنما نحن فتنة : أى بلاء واختبار ، فلا تكفر بتعلمه والعمل به .

وأما من تعلمه للحذر منه ، وليعلم الفرق بينه وبين النبوة والمعجزة ، فهذا لا شيء فيه ، بل هو أمر مطلوب مرغوب فيه إذا دعت الضرورة إليه . ولكن الناس ما كانوا يأخذون بالنصيحة ، بل كانوا يفرقون به بين المرء وزوجه ، وذلك بإذن الله ومشيئته .

• ما تدل عليه الآية :

وقد دلت الآية على أن تعليم السحر لتحذير الناس من الوقوع فيه والعمل به مباح ، ولا إثم فيه .

وأيضا تعلمه لإزالة الاشتباه بينه وبين المعجزة والنبوة مباح ولا إثم فيه .

وإنما الحرام والإثم فى تعلمه أو تعليمه للعمل به ، فهو مثل ما قيل :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

واليهود لمَّا جاءهم رسول الله ﷺ كفروا به ونبذوا كتابهم «التوراة» وكتاب الله «القرآن» وراء ظهورهم ، وبدل أن يتبعوا الحق المبين اتبعوا السحر الذى توارثوه عن آبائهم والذى علمتهم إياه الشياطين.

وكان الواجب عليهم أن ينبذوا السحر ، ويحذروا الناس من شره وذلك كما فعل الملكان : هاروت وماروت من تحذير الناس من شروره والعمل به(١) .

النهاية

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ [سبأ : ١٤].

ليس بعد التمام إلا النقص ! هذه سنة الله فى خلقه ، فإنه لما تم لسليمان ما أنعم الله به عليه من نعم يسخرها فيما يشاء ويوجهها إلى إنجاز ما يريد كان قضاء الله عليه بالموت ، وظل أمر موته خفيًا على الجن فَعَمِيَ عليهم بعض الوقت ، ما دلهم عليه إلا دابة الأرض (الأَرَضة ـ أو سوس الخشب) أكلت عصاه التى كان متكئًا عليها وهو يؤدى صلاته فلما سقطت عصاه خرَّ سليمان ساقطًا على الأرض بسقوطها .

(١) الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير ، د. أبو شهبة .

فلما خَرَّ على الأرض ميتًا تبينت الجن أنهم لو كانوا يعلمون الغيب - كما يزعمون - لعلموا موته وقت حصوله ، فلم يلبثوا فيما كانوا فيه من التسخير !

تساؤل حول الملكين

ويتساءل الإمام زين الدين محمد بن أبى بكر الرازى الحنفى فى كتابه : «غرائب آى التنزيل »فيقول :

■ فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ ﴾ يدل على أن الله تعالى أنزل علم السحر على الملكين فلم يكن حرامًا ؟

ويجيب فيقول : قلنا : العمل به حرام لأنهما كانا يعلمان الناس السحر ليجتنبوه كما قال تعالى : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ [البقرة : ١٠٢] .

نظيره : لو سأل إنسان : ما الزنا ؟ لوجب بيانه له ليعرفه ، فيجتنبه.

■ **فإن قيل : قوله تعالى :** ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٠٢] ، أثبت لهم العلم أولاً مؤكدًا بلام القسم ثم نفاه عنهم ؟

قلنا : المثبت لهم : أنهم علموا علمًا إجماليا أن من اختار السحر ما له فى الآخرة من نصيب .

والمنفى عنهم : أنهم لا يعلمون حقيقة ما يصيرون إليه من تحسر فى الآخرة ولا يكون لهم نصيب منها ، فالمنفى غير المثبت ؛ فلا تنافى .

■ فإن قيل : كيف قال : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة : ١٠٣] ، وإنما يستقيم أن يقال : هذا خير من ذلك إذا كان فى كل واحد منهما خير ، ولا خير فى السحر ؟

قلنا : خاطبهم على اعتقادهم أن فى تعلم السحر خيرًا نظرًا منهم إلى حصول مقصودهم الدنيوى به.

تاريخ سليمان عليه السلام فى سطور

يقول المؤرخون: كان سليمان أبيض جسيمًا وضيئًا جميلا ، يلبس من الثياب البيض. وكان خاشعًا متواضعًا يخالط المساكين ويجالسهم ، ويقول : «مسكين يجالس مسكينًا».

وكان أبوه فى أيام ملكه يشاوره فى كثير من أموره - مع صغر سنه - لرجاحة عقله ، وغزارة علمه .

وكان رجل سلام ، وإن كان على استعداد لحمل السلاح ، فتزوج ابنة فرعون مصر ليقوم السلام مكان الصدام بين مملكته ومملكة فرعون[1] .

وبنى سليمان بيت الرب فى أورشليم ، وكان يضىء فى ظلمة الليل إضاءة السراج الزاهر لكثرة ما كان فيه الجواهر والذهب .

فلم يزل بيت الرب على ما بناه سليمان حتى غزا بختنصر بيت المقدس - أورشليم - فدمرها ونقض بيت الرب وأخذ ما كان فيه من الذهب والفضة والجواهر فنقله إلى بابل .

تنبيه وتحذير !! هذا بيان للناس !

ينبغى أن يُعلم أن القصص القرآنى ليس تاريخا يحدد الزمان والمكان ويعيّن الأشخاص . إنما هو قصص يعنى بموضع العظة والعبرة فى القصة من جهة ما يدعو إليه من إصلاح النفوس ، وتهذيب الأخلاق ، وتوجيه الناس إلى الخير والأخذ بالقيم العليا .

نعم يذكر المفسرون فيما يتصل بالقصص القرآنى كثيرا من الآراء فى الأشخاص ، والأماكن ، والأزمنة وغرائب الأخبار ! مما يدعو إلى البلبلة وفقدان الثقة !

ولكن ما يذكرونه من ذلك عن طريق الروايات شىء ، والذى وقف القرآن عنده - ويجب أن نقف عنده فى الإيمان - شىء آخر.

وهاتان ناحيتان ينبغى التفرقة بينهما ، والاقتصار فى التفسير على ما تنبىء به الآيات فقط ، أو على ما يثبت اتصاله بالرسول ﷺ فى بيان المعنى المقصود .

أما ما لا يشهد به عقل ، ولا يدل له نقل فعلينا أن نبعده عنا .

(١) يُستفاد من كتاب تاريخ مصر من أقدم العصور تأليف برستيد أن الفرعون الذى صاهره سليمان ، هو (شيشق) أول ملوك الأسرة الثانية والعشرين.



ذو القرنين
كما حدثنا عنه القرآن في سورة الكهف

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف : ٨٤، ٨٥].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن
كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ
وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ
فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ
وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ
قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾
حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ
يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾
قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٦﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا
سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٧﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن
يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٨﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ
رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ .

[الكهف : ٨٣ – ٩٩]

أدب السؤال والجواب

كان أصحاب رسول الله ﷺ يلتزمون معه الأدب الذى أدبهم به فى السؤال والجواب ، فلا يسألونه إلا بمقدار ، ولا يسألونه إلا فى حدود ما ينتفعون به فى أمور دينهم ، ولكن اليهود كثيرًا ما كانوا يثيرون تساؤلات ربما شغلت بال المحيطين بالرسول ﷺ .

ومن أجل هذا نرى ترجمان القرآن «عبد الله بن عباس» يقول فى هذا المعنى : «ما رأيت قومًا خيرًا من أصحاب محمد ﷺ ! ما سألوه إلا عن «ثلاث عشرة مسألة» حتى قبضه الله تعالى فى القرآن الكريم ، فما كانوا يسألون إلا عما ينفعهم».

ومن الآيات التى تضمنت سؤاله ﷺ قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا . . ﴾ الآيات إلى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ [الكهف : ٨٣ - ٩٨] .

• **سؤال غريب :**

الرسول ﷺ كان مشهودًا له من الجميع بالصدق والأمانة ، وكان ربنا . سبحانه وتعالى . يؤيده بالآيات البينات .

ومع هذا فإن أهل الكتاب وضعوه موضع الاختبار نظرًا إلى أن لديهم معلومات عن أخبار الماضين تضمنتها كتبهم . وهم يعلمون أن النبى ﷺ لا سبيل له إلى علمها ؛ لأنه لم يكن له اتصال بهم ، فضلاً عن أنه كان أُمِّيًّا لا يقرأ ولا يكتب ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٨] .

فلقد شجعهم هذا على سؤال النبى ﷺ عن تلك الغيبيات إما بتحريض قريش على سؤاله ، وإما بسؤالهم إياه بأنفسهم امتحانا له ، وكان من بين الأسئلة التى وجهت إلى النبى ﷺ سؤال عن «ذى القرنين» أملاً فى أن يقع فى حرج العجز عن الإجابة !!

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف : ٨٣] .

أضواء على قصة ذى القرنين

قصة ذى القرنين إحدى قصص ثلاث ذكرتها سورة الكهف :

أولاها : قصة أصحاب الكهف ، وهى قصة البطولة والتضحية فى سبيل الحق والإيمان ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف : ١٣] .

وثانيتهما : قصة موسى . عليه السلام . مع العبد الصالح ، وهى قصة التواضع

واحتمال المشاق في سبيل العلم والمعرفة ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف : ٦٦] .

أما قصة «ذى القرنين» فهى قصة العدل والنجدة . رجل قوى ، عرف ربه فاتّقاه ، فمكن الله له فى الأرض وآتاه من كل شيء سببًا :

وصل إلى غرب المعمورة فوجد المفسدين والمصلحين فوضع فيهم قانون الجزاء العادل : ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ .. ﴾ [الكهف : ٨٧، ٨٨] .

ووصل إلى الشرق فوجد قومًا يغلب عليهم الضّعف ، ولهم جيران أقوياء مُفْسِدُون يُغيرون عليهم : يقتلونهم ، ويسلبون أموالهم ، فطلبوا من «ذى القرنين» أن يُنْقِذَهم من شر هذا الجوار ، وأشاروا عليه بإقامة سدّ فى منفذ بين جبلين ، كان ذلك المنفذ هو الطريق الوحيد لهؤلاء المفسدين فى الوصول إليهم ، فاستمع «ذو القرنين» لشكواهم ، واستجاب لرغبتهم ، وأقام السد بناءً محكمًا متينًا بين الجبلين وطمأنهم على بقائه ما بقيت الحياة قائمة متماسكة .

﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ [الكهف : ٩٨] .

وهو لا ينسى فى قمة نجاحه وانتصاره وسطوته وقوته قدرة الله وجبروته وأنه راجع إلى الله .

ومن هنا يرى أن كل خير يحققه الله على يديه راجع إلى رحمه الله به وفضله عليه !

فذو القرنين ملك صالح مكّن الله له فى الأرض مشارقها ومغاربها ، كما جاء فى سورة الكهف . وكم نحن فى أمَسّ الحاجة . فى أيامنا هذه ، وهى عالمنا المعاصر . إلى «ذى القرنين» !! ، ليضع قانون الجزاء العادل فى المفسدين والمصلحين حتى تنحسر موجات الفساد الزاحفة على المعمورة فى البر والبحر ! كم نحن بحاجة إلى «ذى القرنين» ليعلم الشعوب المستضعفة كيف تعتمد على نفسها وتشترك فى بناء نهضتها ، نعم كم نحن فى أمَسّ الحاجة إلى «ذى القرنين» ليقف إلى جانب الدول النامية والمستضعفة فيؤمّنها ، ويقف إلى جانبها ، ويأخذ بيدها كى تنهض دون أن يضيف إلى أعبائها أعباء مادية قانعًا بما أعطاه الله ! بعد أن أصبحت مشكلة الديون أخطر ما يواجه العالم من مشكلات !

ويارب ، إن «يأجوج ومأجوج» القرن العشرين مفسدون فى الأرض فمن يقيم السد فى وجوههم لتتوقف غاراتهم على البلاد العربية ، ويتحقق أمل الانتفاضة الفلسطينية!

• **الاختلاف فى شخص ذى القرنين :**

وقد اختلف فى شخصه :

١. **فقيل هو الإسكندر المقدونى . وهو رأى معظم المفسرين .**

قال النيسابورى : أصح الأقوال فيه أنه هو «الإسكندر بن فليقوس الرومى» الذى ملك الدنيا بأسرها ؛ إذ لو كان غيره لانتشر خبره ،ولم يَخْفَ مكانُه .

ويقول الفخر الرازى : لما ثبت بالقرآن أن «ذا القرنين» ملك الدنيا ، أو ما يقرب منها ، وثبت فى التاريخ أن من هذا شأنه لم يكن سوى «الإسكندر» ، وجب القطع بأن «ذا القرنين» هو «الإسكندر» .

ثم قال : وفيه إشكال !! فإنه كان تلميذاً «لأرسطاطاليس» الفيلسوف ، وكان على مذهبه ، فتعظيم الله له ، يوجب الحكم بأن مذهب أرسطو حق ، وهذا ما لا سبيل إليه!!

وأجاب الرازى عن هذا الاعتراض بما خلاصته : أنه ليس كل ما ذهب إليه الفلاسفة باطلا ، فلعله أخذ منه ما حَسُن ، وترك منه ما لم يحسن(١) .

ويقول الآلوسى فى تأييد هذا الفهم :

إن الحكماء تشاوروا فى أن يسجدوا له إجلالا وتعظيما ؛ فقال لهم : لا يجوز السجود لغير الله - كما نقله الشهرستانى - .

ويلاحظ أن «الإسكندر» كان موجودًا قبل مبعث عيسى - عليه السلام - بثلثمئة سنة كما نقله الآلوسى عن بعض المؤرخين .

٢. **وهناك من قال** : (إنه رجل يمانى ملك الأرض كلها) . فقد ذكر أبو الريحان المنجم فى كتابه : (الآثار الباقية عن القرون الخالية) أن ذا القرنين هو : أبو كرب بن عمير بن امرىء القيس بن أفريقش(٢) ، وهو الذى افتخر به تبع اليمانى :

قد كان جدى ذو القرنين مسلمًا(٣) **ملكًا علا فى الأرض غير مقيد**

بلغ المشارق والمغارب يبتغى أسباب ملك من حكيم مرشد

---

(١) التفسير الوسيط الصادر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.

(٢) أفريقش جد أبى كرب ، استولى على المغرب ، وسميت أفريقيا باسمه ذكره الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره.

(٣) مسلمًا : مؤمنا بربه . والإسلام كان وصية إبراهيم - عليه السلام - لبنيه .

ثم قال أبو الريحان:

ويشبه أن يكون هذا القول أقرب ؛ لأن الملقبين بكلمة «ذى» كانوا من اليمن كذى نُوَاس ، وذى يزن .

واختار هذا القول : «كاتب حلبى» ، وذكر أنه كان فى عصر إبراهيم عليه السلام.

٣. وهناك من يرى : أن ذى القرنين هو «غورش» الفارسى ، ويسميه اليهود «كورش» ويسميه اليونانيون «سائرس» .

وإطلاق «ذى القرنين» عليه عند أصحاب هذا الرأى ناشئ من رؤيا رآها النبى «دانيال» فى منامه خلاصتها :

أن كبشا كان واقفا على شاطئ النهر له قرنان ، وهو ينطح بهما شرقًا وغربًا وجنوبًا، ولا قِبَل لحيوان بالوقوف أمامه .

وتفسير الرؤيا : أن الكبش ذا القرنين يمثل اتحاد مملكتى : (ميديا وفارى) وأنه يحكمها ملك قوى لا تقدر دولة على مواجهته .

وقد ظهر بعد ذلك بسنوات الملك «غورش» ملك الفرس المذكور فوحّد (ميديا وفارى) وأنشأ منهما مملكة عظيمة .

وهاجم «بابل» واستولى عليها ، وجعل الله الأمم فى حوزته ، ونزع القوة من سواعد الملوك ، وفتح له الأبواب تلو الأبواب ، ومنحه الخزائن المدفونة ، وأخذ بيده ليتم مرضاته.

● **سر التسمية بذى القرنين :**

وتسميته ذا القرنين ـ على أنه « الإسكندر المقدونى» أو «أبو كرب اليمنى» لأنه بلغ ناصيتى مشرق الشمس ومغربها .

وقيل : كانت له ضفيرتان من شعر فنسب إليهما ، والوجه الأول أولى بالقبول ؛ لأن قرن الشمس ناصيتها وتلك كانت علامة مميزة لذاك الفاتح العظيم.

أما «كورش» فقد كان له تمثال من الحجر فى عصره بقدر القامة وعلى رأسه قرنان تأييدًا لتلك الرؤيا ، وقد عثر فى القرن التاسع عشر على هذا التمثال فى إيران ؛ فلعل اليهود حين سألوا كانوا يقصدون «كورش» فهو المعروف عندهم بذى القرنين.

إن اليهود كانوا يعرفون «ذا القرنين» ومن أجل هذا تساءلوا عنه ، إنه هو الذى مَزّق بابل إرْبا إرْبا بفضل مواجهته وصلابته .

وهو الذى خلص بنى إسرائيل من الأسر . ولقد بلغ بفتوحه ومعاركه إلى آسيا الصغرى وسواحل الشام من جهة الغرب . وإلى «بلْخ » من جهة الشرق.

أما فى الشمال أو الجنوب فلم يذكر التاريخ شيئا من معاركه وإن كان حدثنا أن دولته بلغت القفقاز شمالا .

ويقول التاريخ : إن «كورش» ملك فارسى بدأ نجمه فى الظهور فى حوالى ٥٤٩ ق. م وقد استولى على بابل عام ٥٣٩ ق. م بعد إخضاعه مملكتى : (ميديا) و (ليديا) آسيا الصغرى فى عضون بضعة أعوام . ولم تستطع قوة وقتذاك أن تَصُدّه أو تقف فى وجهه! وامتدت فتوحه من السند والصغد (تركستان الحالية) إلى مصر وليبيا فى طرف ، وتهريس ومقدونية فى طرف آخر ، واتسعت إلى القفقاز وخوارزم ، فكان يخضع له فى الحقيقة كل العالم المتحضر ، فهل هو «كورش» ؟

ونعود إلى السؤال عنه من جديد .. من هو ؟

وما لنا نبحث فيما لا طائل وراءه وندع العظة والعبرة التى ركز القرآن عليها ؟!

إن شخصية ذى القرنين ليست من العقائد التى ينبغى أن نعرفها !

والقصص القرآنى لا يعنى بالأشخاص والزمان والمكان عنايته باستخلاص العبرة.

واستخلاص العبرة لا يحول دونه جهلنا باسمه وسجل بياناته الشخصية . وليس فى القرآن ولا فى السنة الصحيحة ما يدل على شىء من هذا ! ، فلا علينا إن لم نتوقف عند الاسم !

ولكن المفسرين والباحثين راحوا يبحثون عن شخصيته ويتساءلون : من هو ؟ وفى أى مكان كان ؟

وقد كشفت الحفريات الحديثة أن المراد به : «قورش» الذى كشفت الحفريات عن تمثال له فى مدينة «إصطخر» فى مقابلة مدينة طهران .

وقد كتب مولانا أبو الكلام «أزاد» بحثا فى هذا ، فقد وجد أن ذاك التمثال «ذو القرنين» فى مقدمة التاج وفى مؤخرته ، ومهما يكن من شىء فإن المفسرين لم يتوقّفُوا عند الخلاف على «الاسم» فقط بل راحوا يذكرون فى قصته «عجائب وغرائب» مما لم

يرد فى القرآن ذكره ، وإلى الإسرائيليات مرجعه.

وحسبنا ما جاء فى القرآن طالما ليس فى السنة الصحيحة ما يدل عليه . وليت الأمر يتوقف عند هذا بل راح المفسرون ينقلون عنه أخبارا ما أنزل الله بها من سلطان!

• **كتب التفسير والسير والأخبار :**

ويرحم الله الإمام الحافظ الناقد : ابن كثير حيث قال فى تفسيره : وقد ذكر ابن جرير ههنا عن وهب بن منبه أثرًا طويلاً عجيبا فى سير ذى القرنين ، وبنائه السد ، وكيفية ما جرى له.

وفيه طول وغرابة ونكارة فى أشكالهم ، وصفاتهم ، وطولهم ، وقصر بعضهم ، وآذانهم .

روى ابن أبى حاتم عن أبيه فى ذلك أحاديث غريبة ، لا تصح أسانيدها . والله أعلم (تفسير ابن كثير . والبغوى ج ٥ ص ٣٢٩).

إن علينا إذن أن نغلق الباب فى وجه تلك الأقاويل فيكفينا ما جاء فى كتاب الله متضمنا العبرة والعظة ومعبرًا عن مقصود الدعوة وهدفها .

ولا علينا إن نحن لم نعط تلك الروايات آذانًا صاغية ، ولا قلوبا واعية ؛ فلقد أغنانا الله عنها بقرآننا ، وهو حسبنا .

فتعال نتابع خطوات ذى القرنين فى شرق الأرض وغربها.

• **القصة فى كلمات موجزة يعقبها تفصيل :**

لقد سأل السائلون من قريش بتحريض اليهود ، أو سأل اليهود أنفسهم رسول الله ﷺ بدافع اختباره عن ذى القرنين الذى جاب الأرض كلها. إنهم يقرءون قصته فى كتبهم، فليقرأها عليهم النبى ﷺ تلاوة كما فى كتاب ربه الذى أوحاه سبحانه إليه.

ولتكن الإجابة إجمالية يعقبها بيان وتفصيل . ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف : ٨٤ ، ٨٥] .

لقد زوّده الله بقدرة على التصرف فى الأرض ، وهيأ له من أجل ذلك كلَّ الأسباب والوسائل لكيلا يعوقه عائق !

لقد أتاح الله له العلم وحُسْنَ التدبير والحكمة فى التصرف ، وتدريبَ الجنود ، واختيار القواد ، والعتاد الحربى ، وقام بعدة رحلات.

• **الرحلة الأولى : التحرك تجاه مغرب الشمس :**

لقد اتبع طريقا وأسلوبا من شأنه إنجاح غزوه للأقطار الغربية . آن الأهداف البعيدة والغايات الشاقة لا ينالها القاعدون الخاملون ، وإن معالى الأمور لا تدرك إلا باستعمال الأسباب الموصلة إليها.

إن كل شيء مهيأ إذا كانت عقولنا وقلوبنا كذلك ، لقد سلك الأسباب فى فتوحاته وها هو ذا يبلغ منتهى الأرض من جهة مغرب الشمس .

إنه يقف عند حافة المحيط فيجد الشمس . كما أدركها بصره . تَغْرُب فى عين ذات طين أسود ! «حمئة».

ومن القراء من قرأ فى «عين حامية» : فإنه لما بلغ حافة اليابسة ، وقف ينظر إلى الشمس عند غروبها فرآها . فى نظره . كأنما تغرب فى عين متقدة نارية بسبب قرص الشمس الشديد الحمرة ، فبدا مكان اختفائها كأنما هو عين حامية.

وكما يتصَوّرها الناظر تغرب فى عين حامية ، يتصورها تغرب فى عين ذات طين أسود : فإنها لما غابت تحت الماء ، أصبح مكان اختفائها فيه مظلما باهتًا بعد أن كان متقدا.

وعلى كلتا القراءتين فهذا الذى رآه ليس من الحقائق الواقعة وإنما هو أمرٌ ناشئ فى وجدانه وخياله .

فما أجمل تعبير القرآن بقوله : «وجدها» !

وكما يراها الناظر عند غروبها تغرب فى عين ماء حمئة أو حامية فإنه يراها تشرق خارجة من اليابسة ، وتغرب داخلة فيها إذا كان واقفا على متسع فسيح من أرضها .

• **الحقيقة :**

والحقيقة : أن الشمس لا تغرب فى الماء ولا فى اليابسة عند الغروب ولا تشرق منهما عند الشروق ، فالشمس أكبر من الأرض أضعافًا مضاعفة ، ولا تختفى عن مدارها .

ولكن الأرض تدور تحت أشعتها فتعم الشمس نصفها بضوئها ، لأنها على شكل كرة ، فيكون النهار فى القسم الذى استضاء بنورها والليل فى القسم الآخر.

وكلما دارت الأرض اختفت أشعة الشمس عن بعضها فحل فيه الليل محل النهار ، وظهرت أشعتها فى بعض آخر تكَشَّف للشمس ، فحل فيه النهار محل الليل .

- **القوم الذين وجدهم ذو القرنين عند مغرب الشمس :**

لقد وجد ذو القرنين فى طرف الأرض من ناحية المغرب عند العين التى تخيلها ، وتخيل أن الشمس تغرب فيها قوما مشركين . كما هو شأن الناس عند غياب الرسل عنهم .

لقد فوض الله إليه أمرهم وَخيّره :

«أ» إما أن يعذب هؤلاء القوم بالقتل إن أصروا على الشرك وأبوا الإيمان .

«ب» وإما أن يتخذ فيهم أمرًا مستحسنا فيصابرهم ويطاولهم لعلهم يؤمنون ويرشدون !

وقد يكون هذا التخيير لذى القرنين على سبيل الإلهام من الله ، أو على لسان نبى كان معاصرا له فراح ينفذ فيهم مبادئه التى آمن بها ، المهم أنه خيرهم !

- **تخيير وتفكير :**

لقد خيره الله سبحانه وتعالى فى شأن أولئك الذين وجدهم عند مغرب الشمس ، وقد أعطاهم الفرصة وراح يفكر .

إن هؤلاء الناس سوف يكونون بعد دعوتهم إلى الحق قسمين :

«أ» ظالمين لأنفسهم ببقائهم على الكفر وإصرارهم عليه .

«ب» ومؤمنين تائبين من كفرهم .

ولكل جزاؤه :

فأما من ظلم ببقائه على الكفر والعصيان فسوف يعذبه بالقتل ولعذاب الآخرة أشد حين يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نُكْرًا «منكرًا فظيعا» .

وأما من آمن وعمل صالحا على وفق شريعة الله التى جاء بها نبى ذلك العصر فله المثوبة الحسنى فى الدارين جزاء له على إيمانه وصالح عمله.

وسوف يلقى هذا الفريق من ذى القرنين يسرا وسهولة فى مختلف التكاليف الإيمانية ؛ فإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها .

• **الرحلة الثانية : الطريق إلى المشرق بعد غزوه للمغرب :**

لقد اتخذ «ذو القرنين» طريقا موصلا إلى المشرق ليرجع فيه بعد غزوه للمغرب ، وبعد أن أقام هناك الحق والعدل .

وسار «ذو القرنين» حتى إذا بلغ الإقليم الذى تطلع عليه الشمس أولا فى ناحية المشرق على حافة المحيط وجدها تطلع على قوم بدائيين فطريين متخلفين لم يرتقوا صناعيا حتى يصنعوا لأنفسهم ثيابا تسترهم ، وتحميهم من أشعة الشمس ، أو يتخذوا لهم مساكن تؤويهم وتقيهم حرارتها .

وقد يكون ذلك فى المناطق التى يمكث فيها النهار أيامًا متتالية فى فصل ، ثم يمكث الليل أياما متتالية فى فصل آخر .

ولقد صادف وصوله إلى تلك البقاع أن الزمن كان نهارا دون ليل ، بينما كانت الشمس طالعة فوقهم دائما ، وليس لهم - وقتئذ - ليل يسترهم منها .

وهذا معنى قوله - سبحانه - ﴿ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ [الكهف : ٩٠] .

• **كمال استعداد ذى القرنين لهذه الرحلة :**

يُجْمِلُ القرآن الكريم كمال الاستعداد لهذه الرحلة ويعظم أمرَ ذى القرنين ويُفخّمه بقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ [الكهف : ٩١] إن ما حكاه القرآن الكريم عن ذى القرنين فى اليسر والسهولة يمثل واقعا ، وكيف لا وقد أحاط الله - سبحانه وتعالى - علما بما لديه من وسائل وإمكانات متاحة حقق بها ما يريد من بلوغ أطراف الأرض مغربا ومشرقا .

• **الرحلة الثالثة :**

لما أتم ، ذو القرنين ، رحلته إلى المشرق وأخضع أهله لحكمه اتخذ طريقا ثالثا ليخضع لسلطانه قوما آخرين لم يدينوا له بعد .

ومن هناك وصل فى سيره إلى منطقة بين جبلين معينين ، وعلى القرب منهما وجد قومًا يصعب عليهم فَهْم ما يقال لهم ، لقلة فطنتهم ، ولعلهم كانوا يتفاهمون معه بالإشارة ، ولعلهم كانوا على درجة من التخلف لبعدهم عن مراكز الحضارة ، ولعل لغتهم لم تكن إحدى اللغات المتداولة ! ومن هنا فهم لا يكادون يفقهون قولا كما عبّر القرآن الكريم .

لكنهم قد سمعوا عن قوة سلطان ذى القرنين وعظيم همته ، وأخبار رحلته التى ترامت إليهم فما كاد يلقى عصاه على أرضهم حتى أخبروه - بطريقة أو بأخرى - أن قبيلتى «يأجوج ومأجوج» المقيمتين خلف السدين مفسدون فى الأرض ، أرضهم وأرض غيرهم ، بينما هم عاجزون عن رد أذاهم والتصدى لهم !

إنهم على استعداد لتقديم المال والعطاء لمن يقدم خبرته ومساعدته لكى يجعل بينهم وبين أولئك المفسدين حاجزًا بين هذين الجبلين يحول دون أذاهم وعرضوا على «ذى القرنين» أن يتولى إقامة السد بينهم وبين «يأجوج ومأجوج» على أن يجعلوا له خراجا وعطاء ومالا فى مقابل إقامة السد .

لكن «ذا القرنين» يعف عن أموالهم ، ويتركها لهم فلا حاجة له بتلك الأموال ، فما مكنه فيه ربه ، وجعله فيه مكينا من الملك والمال والعلم وسائر الأسباب خير من هذا الذى يريدون بذله له ، وهم أولى به !

إن كل ما يطلبه منهم أن يوفروا له اليد العاملة والمواد الخام فيُعينوه على بناء السد بالعمّال وآلات البناء والوقود وقطع النحاس والحديد وغير ذلك مما لابد منه فى إقامة السد حتى يساوى بين الجبلين ، ويجعله شديد القوة بحيث لا يقدر أولئك المغيرون على صعوده ، ولا على اختراقه.

وبذلك يتسنى له أن يجعل بينهم وبين من يغيرون عليهم حاجزا حصينا وحجابا متينا فى الوقت الذى يمارسون فيه بأنفسهم إقامة السد بإشراف ذى القرنين ويتلقون عنه الخبرة فى إقامة السدود !

- **على قدر أهل العزم تأتى العزائم :**

وجد أولئك القوم أنفسهم أمام قائد عظيم ، وحاكم جاء ليقيم الحق والعدل ، ويقف إلى جانب المقهورين ؛ إنه يَعدُهم بتحقيق مرادهم فوق ما كانوا يتخيلون وهذا ما يليق بملك عظيم مثله !

- **وأعلنت التعبئة لبناء السد !!**

إن المطلوب أولا أن يوافوه بقطع الحديد ، وها هم أولاء يُحْضرونها ، وها هو ذا يضع بعضها فوق بعض بطريقة فنية تقتضى التماسك والارتفاع بالبناء ، حتى إذا ساوى ما بين جانبى الجبلين بما بناه من السد قال للعمال : انفخوا بالكيران(١) فى الوقود

(١) جمع كير وهو آلة النفخ التى يستخدمها الحداد لينصهر الحديد ويلين فيسهل تشكيله.

الموضوع بين قطع الحديد حتى أصبح السد كأنه نار بعد انصهار الحديد . وعندئذ قال للعمال : آتونى ما أذبتم من نحاس أو رصاص لأفرغه فوق السد ليسد الثغرات التى بين قطع الحديد حتى تزداد تماسكا والتصاقا ويصبح أملس فلا يستطاع تسلقه أو نقبه.

• **مفاجأة ليأجوج ومأجوج :**

وتملكت الدهشة «يأجوج ومأجوج» حين جاءوا ليمارسوا عدوانهم فوجدوا السد ! لقد وقفوا أمامه حائرين ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ [الكهف : ٩٧].

لقد قيل - والله أعلم بصحة ذلك - إن ارتفاعه كان مائتى متر ، وكان غلظه خمسين ذراعًا .

المهم أنه كان سدًا استخدمت فيه أحدث وسائل بناء السدود فى ذلك العصر !

• **ذو القرنين والسد العظيم :**

بعد أن فرغ ذو القرنين من بناء السد وإحكامه بحيث يمنع «يأجوج ومأجوج» من الخروج من ورائه ليفسدوا فى الأرض وقف أمام السد العظيم وهو يشير إليه قائلا :

هذا أثر رحمة عظيمة من ربى بعباده ، حيث أقدرنى على بنائه وإحكامه ، وحمى به الناس من غزوات أولئك المفسدين المخربين ، وما أنا إلا منفذ لمشيئة ربى ورحمته بعباده، ولولا ذلك لما استطعت بناءه .

وسيظل يأجوج ومأجوج يموج بعضهم فى بعض فى محبسهم فإذا شاء الله خروجهم دك السد .

إن وعد الله حق ، والله لايُخلف وعده ، وقد وعد الله بخروجهم يومًا مَّا ، وإن غدًا لناظره قريب.

وكما أن العلم فى عصرنا حل مشكلات كثيرة فإن العلم والحضارة والحكمة عند أولئك القدماء بلغت الذورة !

فلابد أنهم استعملوا آلات وطرقًا علمية لم يصل بعدُ أحدٌ إلى معرفة حقيقتها ، ولانكاد نصدقها ما لم نعرف ما كان عليه هؤلاء الأقدمون من العلم والحكمة والإبداع!

وما الأهرام - ذروة فن البناء عند قدماء المصريين - ببعيدة عن العيون والأبصار وقد مضت عليها آلاف السنين ! وكم لله فى خلقه من آيات وعظات !!

سؤال عن يأجوج ومأجوج

يجيب عنه فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت

يقول الله تعالى فى قصة «ذى القرنين» الواردة فى سورة الكهف : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا .. ﴾(١) الآيات.

وفى هذه القصة يسأل سائل عن يأجوج ومأجوج : من هم ؟ وأين هم الآن ؟

وعن السد الذى أقامه ذو القرنين دونهم : هل هو موجود الآن ؟ وأين هو ؟

والجواب(٢) :

«إنه ليس فى آيات القصة بالنسبة ليأجوج ومأجوج أكثر من أنهم : ﴿ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ وأن ذا القرنين أقام السد الذى منعهم من الوصول إلى هؤلاء الضعفاء .

وأن هذا السد من المتانة والإحكام بحيث لا تنهض قوة بشرية على إزالته . والقرآن الكريم يذكر فى هذا الموضع ما حكان من قول على لسان ذى القرنين : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ [الكهف : ٩٨] .

ويقول القرآن فى موضع آخر من سورة الأنبياء : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ [الأنبياء : ٩٦، ٩٧].

وهذا النص لا يحدد زمانا معينا لخروج يأجوج ومأجوج ..

فاقتراب الوعد الحق بمعنى اقتراب الساعة قد وقع منذ زمن الرسول ﷺ فجاء فى القرآن الكريم : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر : ١] . والزمان فى الحساب الإلهى غيره فى حساب البشر ، فقد تمر بين اقتراب الساعة ووقوعها آلاف السنين ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحج : ٤٧].

---

(١) الكهف: ٩٣ - ٩٩ .

(٢) لفضيلة الشيخ محمود شلتوت عضو هيئة كبار العلماء من كتابه : «يسألون».

• الكهف ومعجزة القرآن :

يقول الشيخ الشعراوى فى «معجزة القرآن» :

الكهف فجوة داخلة فى الجبل لا نعرف ما بداخلها حتى نبحث قليلا حتى نصل إلى معرفة ما بداخله .

وقد جاء الله - سبحانه وتعالى - فى هذه السورة بكهوف معنوية تنبئنا بما يستتر عنا من حقائق فى الكون وفى أحداثه .

ففى قصة ذى القرنين يحدثنا القرآن عن أشياء كانت مستورة عن علم الإنسان وقت نزول القرآن ثم كشفها الله للعلم البشرى بعد نزول القرآن .

لا يعنينا أن نتوقف للبحث فيمن هو «ذو القرنين» للوقوف على شخصيته فإن الشخصيات تتكرر فى كل زمان ومكان ، وهى قصص مضروبة لكل عصر ، والعبرة هنا تأتى بالشيوع . أى على من تنطبق عليهم القصة فى أى زمان كانوا ، وفى أى مكان وجدوا .

ونتوقف لنتساءل عن الحكمة وراء آيات القصة آية .. اية .

إن القرآن الكريم يريد أن يخبرنا أن هناك قوما لم يجعل لهم من دون الشمس سترا .

ويقودنا التساؤل لكشف الكهوف المعنوية .

هل كانت أرضهم قاحلة ، وليس فيها شجر يستر الناس عن الشمس ؟

هل كانوا عرايا - مثلا - ليس عندهم ملابس تقيهم الشمس ؟

ألم تكن لديهم مساكن تقيهم الحر وتحميهم من وهج الشمس ؟

كل هذا يخطر علي البال ..

لكن هذه الأشياء لا تستر الشمس ، إن الذي يستر الشمس هو الليل .

لقد حدثنا القرآن عن ثلاث رحلات لذي القرنين عمل عملا في اثنتين منها ، وفي الثالثة لم يحدثنا عن عمل ، إنه يلفتنا إلي حقيقة فلكية وجغرافية .

هناك مناطق من الأرض لا تغيب عنها الشمس فترة طويلة أي لا يتعاقب عليها الليل والنهار كباقى أجزاء الكرة الأرضية بل تظل مشرقة عليها لفترة طويلة لا يسترها الظلام .

ويأتى العلم ليثبت أن هناك مناطق فى العالم تغيب عنها الشمس ستة شهور فى العام .

ويل للعرب من شر قد اقترب

روى البخارى بسنده عن زينب بنت جحش - رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوما فزعًا يقول : «لا إله إلا الله . وَيْلٌ للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من سد يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلّق بإصبعيه[1] الإبهام والتى تليها» .

قالت زينب بنت جحش : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : «نعم إذا كثر الخبث» .

والذى تستريح إليه النفس أن سد «يأجوج ومأجوج» قد تخرب مصداقا لوعده تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ [الكهف : ٩٨] .

وقد خرجوا من محبسهم فى غزوات تخريبية ، ومنها ما حدث فى أوائل القرن السابع الهجرى بقيادة (جنكيز خان) حيث أغاروا على بلاد المسلمين : فأطاحوا بمملكة «قطب الدين السلجوقى» ملك التركستان والفرس ، وأخضعوا بلاد الهند ، وهلك الطاغية (جنكيز خان) بعد رجوعه من الهند .

وأغار ابن أخيه (هولاكو) بجنوده على مقر الخلافة ببغداد فى عهد الخليفة (المستعصم بالله) وذبحوا الخليفة ، وعلقوا جثته بذيل حصان ، وأباحوا المدينة تسعة أيام سالت فيها الدماء أنهارًا ، وطرحوا كتب العلم فى نهر دجلة .

ثم أذن الله بالنصر عليهم فى عهد الملك سيف الدين قطز بعد أن وصلوا فى غزواتهم المدمرة وهجماتهم الشرسة إلى الشام حيث جرد لهم جيشا عظيما من مصر والشام ، وحاربهم فى معركة فاصلة بعين جالوت ، وهزمهم شر هزيمة وأجلاهم ولم تقم لهم بعدها قائمة !

(١) كناية عن بداية صغيرة لشرهم ، ثم اتسع هذا الشر فى أوائل القرن السابع الهجرى.

تساؤلات وإجابات

س ١ : هل على المؤمن من حرج إن هو لم يعرف شخصية ذى القرنين ؟

ج ١ : إن شخصية ذى القرنين ليست من العقائد وإنما ذكرت قصته للوعظ والإرشاد، فليكن هو الإسكندر المقدونى ، أو رجلا حِمْيَرِيًّا من اليمن ، أو ملكا فارسيًا ، فالقرآن لم يأتنا ليعلمنا تاريخ اليونان أو تاريخ الحميريين ، أو الفارسيين فإن القرآن أعظم من ذلك كله .

س ٢ : من أين علم ذو القرنين أن هذا السد سيدك وينهار ، وأن الله وعد بذلك ، وأنه بعد دكه سيخرج منه يأجوج ومأجوج مع أنه ليس بنبى ؟

ج ٢ : ربما علم ذلك من نبى كان فى وقته ، أو يكون ذلك عن اجتهاد ، أو قراءة فى كتاب نبى سبقه .

قال الألوسى : وحزقيال كان قبل الإسكندر ، فإذا كان هو ذا القرنين فيمكن أن يكون وقف على كتابه الذى تضمن الإخبار بمجيئهم آخر الزمان ، فأفاده علما بما ذكر . والله - تعالى - أعلى وأعلم.

س ٣ : من يأجوج ومأجوج ؟ وأين بلادهم ؟

ج ٣ : هم قبيلتان من البشر ، وهما اسمان أعجميان أو عربيان .

وتمتد بلادهم من التبت والصين إلى المحيط المتجمد الشمالى وتنتهى غربا إلى ما يلى بلاد التركستان ، وحددت فى هضبات آسيا الوسطى شمال الصين.

س ٤ : ما اسم السد الذى بناه ذو القرنين ؟

ج ٤ : واسم السد الذى بناه ذو القرنين بين الجبلين المذكورين (سد باب الحديد) وراء جيحون فى عِمالة «بلخ» بقرب مدينة ترمذ .

وقد دك هذا السد كما وعد الله تعالى وإليه يشير قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ [الكهف : ٩٨] .

وقد اجتاز هذا السد تيمورلنك بجيشه ، ومر به «شاه روح» وكان فى خدمته الألمانى «سيلد برجر» الذى جاء ذكر السد فى كتابه ، وذلك فى أوائل القرن الخامس عشر.

كما جاء ذكر هذا السد فى رحلة الأسبانى «كلافيجو» سنة ١٤٠٣م وكان رسولا من ملك قشتالة(١)

ويرى بعض المؤرخين أن السد هو سد «باب الأبواب» المشهور وهذا يستلزم أن يكون يأجوج ومأجوج من الخزر والترك . وأن الذى بنى السد هو ملك الفرس «غورش» لأنه هو الذى بنى سدّ (باب الأبواب).

وهذا يخالف ما عليه أكثر المؤرخين من أن الذى بنى سد «يأجوج ومأجوج» هو «الإسكندر المقدونى» وقد بناه فى آسيا الوسطى شمالى الصين واسمه «باب الحديد» أما سد «باب الأبواب» **فقد بناه ملك الفرس بناحية أرمينية لأغراض تتعلق بأمن وسلامة أهل هذه المنطقة ممن كانوا يغيرون عليها من «الهنغوليين» وهم غير يأجوج ومأجوج الذين يسكنون بآسيا الوسطى شمال الصين.**

وعلي أي حال فالسد الذي بناه «ذو القرنين» حقيقة واقعة سواء كان (سد باب الحديد) شمال الصين أم كان (سد باب الأبواب) بناحية أرمينية . وكلاهما مصدق لما جاء في القرآن سواء بناه «الإسكندر» شمال الصين أم بناه «الملك الفارسى» بناحية أرمينية.

عبرة التاريخ !!

وبعد هذه الرحلات الثلاث مع ذى القرنين نجد أنفسنا مع حاكم مؤمن يمكنه الله فى الأرض ، وييسّر له الأسباب ، فيجتاح الأرض شرقا وغربا ، ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر ولا يطغى ، ولا يتبطر . ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغُنْم المادى ، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان ، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق ، ولا يسخر أهلها فى أغراضه وأطماعه ، وإنما ينشر العدل فى كل مكان يحل به ، ويساعد المتخلفين ، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل ، ويستخدم القوة التى يسرها الله له فى التعمير والإصلاح ودفع العدوان وإحقاق الحق.

ويجد القارئ نفسه أمام نموذج طيب للحاكم الصالح و « دستور» يطبقه كل من يلى أمر عباد الله ، فالمؤمن الصالح ينبغى أن يجد الكرامة والتيسير والجزاء الحسن عند الحاكم .

---

(١) التفسير الوسيط : وراجع ج ٩ ص ١٩٨ من تفسير الجواهر للشيخ طنطاوي جوهري.

والمعتدى الظالم يجب أن يلقى العذاب والردع ومن هنا كان الإمام العادل أول السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله !

وحين يجد المحسن جزاء إحسانه ، ويجد المعتدى جزاء إفساده . يجد الناس ما يحفزهم إلى العمل والإنتاج وعمارة الكون.

أما حين يضطرب ميزان الحكم فإن نظام الجماعة يصير إلى الفوضى والفساد ، ويصبح الحكم سوط عذاب !

إن قصة ذى القرنين ستظل على مدى الزمان نبعا يستقى منه كل حاكم يخاف الله ويؤمن بالبعث .

عبرة الموت !

إذا كنا قد التزمنا بما جاء به القرآن فى شأن «ذى القرنين» ، وألقينا بكل الإسرائيليات جانبا اكتفاءً بما جاء فى القرآن عن ذى القرنين.

وإذا كنا مع الرأى القائل بأن «ذى القرنين» ليس هو «الإسكندر المقدونى» فإن هذا لا يمنعنا من أن نقف وقفة للتأمل والعظة والعبرة مع الرحالة الكبير والمؤرخ الجليل : المسعودى حيث يقص علينا بعض أقوال الحكماء وعلماء الأمم فى «الإسكندر عندما مات» !

١. فقال عظيم الحكماء ، والمقدم فيهم :

يتكلم كل واحد منكم بكلام يكون للخاصة مُعَزِّيًا ، وللعامة واعظا . وقام فوضع يده على تابوته الذهبى فقال : «أصبح آسر الأُسراء أسيرا» .

٢. ثم قام حكيم ثان فقال :

«هذا الإسكندر الذى كان يخبئ الذهب فصار الذهب يخبئه».

٣. وقال الحكيم الثالث :

«ما أزهدَ الناسَ فى هذا الجسد ، وأرغبهم فى هذا التابوت!».

٤. وقال الحكيم الرابع :

«من أعجب العجب أن القويَّ قد غُلِب ، والضعفاء لاهون مغترون» .

٥. وقال الخامس :

«يا ذا الذى جعل أجله ضمانًا ، وجعل أمله عَيَانًا ، هلاّ باعدتَ من أجلك ، لتبلغ بعض أملك !؟ هل حققت من أملك بالامتناع عن فوتِ أجلك !؟»

٦. وقال السادس :

«أيها الساعى المنتصب ، جمعت ما خذلك عن الاحتياج فغودرت عليك أوزاره ، وفارقتك أيامه ، فمغناه لغيرك ، ووباله عليك !» .

٧. وقال السابع :

«قد كنت لنا واعظا فما وعظتنا موعظة أبلغ من وفاتك ، فمن كان له عقل فليعقل ، ومن كان معتبرًا فليعتبر !».

٨. وقال الثامن :

«رُب هائب لك كان يغتابك من ورائك ، وهو اليوم بحضرتك لا يخافك».

٩. وقال التاسع :

« رب حريص على سُكوتك إذ لاتسكت ، وهو اليوم حريص على كلامك إذ لاتتكلم» .

١٠. وقال العاشر :

«كم أماتت هذه النفس لئلا تموت ، وقد ماتت !؟»

١١. وقال الحادى عشر :

. وكان صاحب خزانة كتب الحكمة . «قد كنت تأمرنى ألا أبعد عنك ، فاليوم لا أقدر على الدنّو منك» .

١٢. وقال الثانى عشر :

«هذا اليوم عظيم العبر ، أقْبَلَ من شره ما كان مُدْبرًا ، وأدْبَرَ من خيره ما كان مُقبلا، فمن كان باكيا على من زال ملكه ، فليبك!».

١٣. وقال الثالث عشر :

«يا عظيم السلطان ، اضمحَلّ سلطانك ، كما اضمحَلّ ظلّ السحاب ، وعفت آثار مملكتك كما عفت آثار الرياب !».

١٤- وقال الرابع عشر :

«يا من ضاقت عليه الأرض طولا وعرضا ، ليت شعرى كيف حالك فيما احتوى عليك منها ؟!».

١٥- وقال الخامس عشر :

«أعجب لمن كانت هذه سبيله كيف شرهت نفسه بجمع الحطام البائد ، والهشيم الهامد ؟!»

١٦- وقال السادس عشر :

«أيها الجمع الحافل ، لا ترغبوا فيما لا يدوم سروره ، وتنقطع لذته ؛ فقد بان لكم الصلاح والرشاد من الغىّ والفساد !» .

١٧- وقال السابع عشر :

«انظروا إلى حُلْم النائم كيف انقضى ، وظلّ الغمام كيف انجلى ؟!».

١٨- وقال الثامن عشر :

- وكان من حكماء الهند : «يامن كان غضبه الموت ، هلا غضبت على الموت ؟!»

١٩- وقال التاسع عشر :

«قد رأيتم أيها الجمع هذا الملك الماضى ، فليتعظ به الآن هذا الملك الباقى ».

٢٠- وقال العشرون :

«هذا الذى دار كثيرا ، والآن يقر طويلا» .

٢١- وقال الحادى والعشرون :

«إن الذى كانت الآذان تنصت له قد سكت ، فليتكلم الآن كل ساكت» .

٢٢- وقال الثانى والعشرون :

«سيلحق بك من سره موتك ، كما لحقت بمن سرّك موته» .

٢٣- وقال الثالث والعشرون :

«مالك لا تُقلّ عضوا من أعضائك ، وقد كنت تستقل ملك الأرض ؟! بل مالك لا ترغب بنفسك عن ضيق المكان الذى أنت به ، وقد كنت ترغب بها عن رحب البلاد ؟!».

٢٤. وقال الرابع والعشرون :

«إن دنيا يكون هكذا آخرها ، فالزهد أولى أن يكون فى أولها ».

٢٥. وقال الخامس والعشرون . وكان صاحب مائدته :

«قد فرشت النمارق ، ونضدت الوسائد ، وهيئت الموائد ، ولا أرى عميد المجلس !»

٢٦. وقال السادس والعشرون . وكان صاحب بيت ماله :

« قد كنت تأمرنى بالجمع والإدخار ، فإلى من أدفع ذخائرك ؟!»

٢٧. وقال السابع والعشرون . وكان خازنا من خزانه :

«هذه مفاتيح خزائنك فمن يقبضها قبل أن أوخذ بما لم آخُذ منها ؟!»

٢٨. وقال الثامن والعشرون :

«هذه الدنيا الطويلة العريضة قد طويت منها فى سبعة أشبار ، ولو كنت بذلك موقنا لم تحمل على نفسك فى الطلب».

٢٩. القول التاسع والعشرون :

قول زوجته «روشنك بنت دلا» ملك فرسه : «ما كنت أحسَب أن غالَب «دارا» الملك يُغْلَب ، وإن كان هذا الكلام الذى سمعته منكم معاشر الحكماء فيه شماتة . فقد خلّف الكأس الذى تشرب به الجماعة».

٣٠. القول الثلاثون :

ما يحكى عن أمه أنها قالت . حين جاءها نعيه . : «لئن فُقد من ابنى أمره ، فما فقدت من قلبى ذكره !».

القسم الثاني

الملكان الكافران

- النمروذ
- بختنصر



«نمروذ بن كنعان .. أول من أدعى الربوبية ورأس الطواغيت ! وأول من وضع التاج على رأسه ! وملك الأرض كلها !!»

(الخازن)

ملوك بابل ... من النُّمروذ إلى بُختنَصّر !!

يذكر المسعودى فى كتابه : «مروج الذهب» ملوك بابل فيقول : وهم ملوك النبط وغيرهم المعروفون بالكلدانيين .

وقد ذكر جماعة من أهل التبصر والبحث ، ومن ذوى العناية بأخبار الملوك فى العالم: أن ملوك بابل هم أول ملوك العالم الذين مهدوا الأرض بالعمارة ، وأن الفُرس الأولى إنما أخذت الملك من هؤلاء ، كما أخذت الروم الملك من اليونانيين.

وكان أولهم «نُمرُوذ الجبار» ! وكان ملكه نحوًا من ستين سنة .

وهو الذى احتفر أنهارًا بالعراق آخذة من الفرات .

ثم تحدث عمن ملكوا بعده واحدًا بعد آخر إلى أن قال : ثم ملك بعده «بختنصّر» الجبار خمسًا وأربعين سنة .

ومع «النمروذ» و «بختَنصّر» نتابع حياة اثنين ممن ملكوا العالم ولكنهما كانا كافرين! وبضدها تتميز الأشياء !

المفسرون والنمروذ

يتعرض المفسرون للنمروذ عند تفسير الآية السادسة والعشرين من سورة النحل:
﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ .

يقول ابن كثير نقلا عن العوفى عن ابن عباس قال : هو النمروذ الذى بنى الصرح .

قال ابن أبى حاتم : وروى عن مجاهد نحوه .

وقال عبد الرزاق عن معمر بن زيد بن أسلم : أول جبار كان فى الأرض «النمروذ».

فبعث الله عليه بعوضة فدخلت فى منخره !

وهو الذى بنى الصرح إلى السماء !

وذكروا من المكر الذى حكاه الله ههنا كما فى سورة إبراهيم : ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم: ٤٦] .

إبراهيم ـ عليه السلام ـ والنمروذ فى كلمات

فى عهد النمروذ ولد إبراهيم ـ عليه السلام ـ ببابل من أرض العراق ، كما نقله ابن الأثير فى تاريخه عن عامة أهل العلم .

وكان إبراهيم فتى من أهل العراق وكان قومه أهل أصنام !

و«النمـروذ» أول من ادعى الربوبيـة ، ورأس الطواغـيت ، وأول من وضع التاج على رأسه ، وتجبر فى الأرض ، وملكها كلها !

ولكن الله - سبحانه - أنار بصيرة إبراهيم وهداه إلى الرشد ، فعلم أن الأصنام لا تسمع ولا تبصر ، ولا تضر ولا تنفع !

وفتح إبراهيم - عليه السلام - عينيه على أبيه آزر ينحت أصنامًا آلهة !

وهنا راح إبراهيم يحاور أباه .. أتتَّخذ أصنامًا وأوثانا تعبدهم من دون الله ؟!

إنى أراك وقومك فى ضلال مبين !

وأضمر إبراهيم - عليه السلام - الشر فى نفسه لهذه الآلهة وأقسم بالله أنه لابد أن يُلْحِقَ الأذى بها !

لقد وضع آلهتهم فى وضع لا تُحسَدَ عليه !! تُرى هل تستطيع أن ترد الأذى عن نفسها ؟

وكانما أراد إبراهيم أن يُقيم الحجة عمليا على أن آلهتهم لا يمكن أن تُصيبهم بأذى إن هم تركوها وعبدوا الله الخالق ! كما أنها لا يمكن أن تنفعهم إذا هم عبدوها !

فالله وحده هو النافع الضار !

إن المنطق لم يُجْدِ معهم ، فليكن البرهان العملى ، وراح إبراهيم - عليه السلام - يحاصرهم بالحجج والبراهين ويُنَفِّذ ما أقسم عليه فى مأمن من أذاها ! ولكنهم كانوا يتربصون به ، ويفكرون فى الانتقام منه !

قالوا - بعد أن فكروا ودبروا وقدروا - : حرِّقوه !

وفى النار المستعرة ألقوه ، ولكن القصة لم تنته فصولها !!

وهنا تتجلى الآية الكبرى والمعجزة العظمى فقد وجدوه سليمًا مُعَافىً بعد أن خَبَا ضوءُ نارهم وانقشع دُخَانها !

تملكتهم الحيرة ، لقد غالبوه بالجدل فغُلبوا على أمرهم !

ونزعوا إلى القوة فردّ الله كيدهم فى نحورهم !

ولجئوا إلى النار فنزع الله منها طبعها ودفع عنه أذاها وحرها : ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٠] ﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩]. ثم ماذا ؟

ويَتَرامى خبر إبراهيم ومعجزته الخالدة إلى ملك بابل :



« نمــروذ »

وعلى أرض بابل وفى قصــر نمروذ الجبار تقع المحاورة الكبرى ! فتعال إلى ملك بابل وأهلها !

المناظرة الكبرى

كما حكاها القرآن الكريم فى سورة البقرة

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] .

الذى حاج إبراهيم فى ربه !

لقـد عـرفت إبراهيم ﷺ ومن حـقـك أن تعـرف الطرف الثـانى فى هذه المناظرة الكبرى !

لقد حدثنا عنه القرآن فى سورة البقرة (الآية ٢٥٨) . التى عرضناها عليك .

إنه ملك بابل «نُمروذ بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح»(١) .

يقول مجاهد : ملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة : مؤمنان ، وكافران :

المؤمنان : سليمان بن داود ، وذو القرنين. والكافران : نمروذ وبُختنصّر .

فتعال نتابع الأحداث ونشهد الوقائع مع مزيد من التفصيل.

(١) جاء فى تاريخ أبى الفداء : وكان نمروذ عاملاً على سواد العراق وما اتصل به للضحاك . وقيل : بل كان النمروذ ملكًا مستقلا برأسه.

أهل بابل وملكهم نمروذ

كان أهل بابل ينعمون برخاء لا نظير له ، ويعيشون فى نعمة غامرة ! ولكن الظلام راح يحتويهم فأخذوا يخبطون فى دياجيره !

لقد نحتوا الأصنام بأيديهم ثم جعلوها أربابا وعبدوها من دون الله المنعم الخالق الذى أسبغ عليهم نعمه ظاهرةً وباطنة !!

وإذا كان الناس على دين ملوكهم فإن «نمروذ بن كنعان بن كوش» ملكهم كان حاكما مستبداً برأيه ! كافرا بربه !

لقد رأى ما هو فيه من نعيم وهو القابض على زمام الملك فى بابل ، وعنده من سطوة الملك وقوة السلطان ما يجعله يأمر فيطاع ، فنسى الخالق المنعم وأقام نفسه إلها !!

واستدعى إبراهيم ليحاوره فيما ينادى به !

إن قومه سعداء ، لأن الملك اتخذ قرارًا لمواجهته !!

لقد جُن جنونهم حين أعيتهم الحيل فى إسكات إبراهيم - عليه السلام - والانتصاف لأصنامهم ! ولقد وصل هو معهم إلى طريق مسدود !! ولقد وجدت موعظته منهم قلوبًا غُلْفًا .. وآذانًا صُمًّا ، وعيونا عُمْيًا .

وراحوا يفكرون كيف يتخلصون من إبراهيم ؟! لقد عمدوا إلى ما يلجأ إليه القوى الجبار الذى لا حقّ معه إزاءَ الضعيف الذى معه الحق !

قالوا : حَرِّقوه .. فقال الله للنار : ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ..

لقد كانوا يشركون ملكهم مع آلهتهم فى عبادتهم ! وخاف ملكهم على ملكه .. فراح يمارس ألوانا من الضغط على إبراهيم محاولا إرجاعه عن ديانته التى جاء بها حتى لا يعبد سواه وآلهته !

وكانت مواقف إبراهيم مع قومه متعددة ، ويتساءل الكثيرون : متى كانت هذه المحاجة وتلك المناظرة ؟ هناك من يقول : إنها كانت عند تكسير الأصنام حيث سجنهُ نمروذ ثم أخرجه ليحرقه !

وقبل الإلقاء فى النار دار الحوار بين إبراهيم ونمروذ .

وقيل كانت المحاجّة بعد الإلقاء فى النار ونجاته منها !

فكان ذلك سببا فى عقد لقاء معه لمعرفة ما وراءه !

ونعود فنتساءل : من ذلك «الذى آتاه الله الملك» ؟

أهو «إبراهيم» - عليه السلام - والدليل على ذلك : «أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور وأن الله يقول : ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٥٤].

إن هناك من المفسرين من يقول : إن المراد به «ذلك الذى حاجّ إبراهيم» فى ربه حيث دفعه ملكه إلى نسيان من أعطاه إياه وأنعم عليه به .

لقد أنكر أن يكون هناك إله غيره ! كما قال بعده فرعون : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : ٣٨] ، ولقد طالت مدته فى الملك وحمله طول الأمل على الطغيان ، والكفر الغليظ ، والمعاندة الشديدة فبغى وطغى وتجبر ، وعاث فى الأرض فسادًا .

ومن الناس من ينسون خالقهم عندما يغمرهم بإحسانه ..

وهكذا كان «نمروذ» !

لقد حاجّ إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك ، لقد كان الملك سببا فى طغيانه !

لقد كان «نمروذ بن كنعان» قابضا على زمام الملك فى بابل ، وحاكما بأمره مستبدًا برأيه.

عبرة وتسلية !

فى قصة إبراهيم أبو الأنبياء - عليه السلام - عبرة وتسلية ولفت نظر إلى هجرة الأنبياء . فحين بلغ الصراع قمته بين الحق والباطل ، بين مشركى مكة ورسول الله ﷺ وعندما هاجر النبى ﷺ من مكة إلى المدينة يحكى الله لنبيه ﷺ متسائلا :

ألم ينته إلى علمك قصة ذلك الطاغوت(١) الذى تصدى لإضلال الناس وإخراجهم من النور إلى الظلمات حين تجبر وادعى الربوبية ؟

وكم فى حياة الداعين والمجاهدين من «نمروذ» و «نمروذ» و «نمروذ» !! لعنهم الله وأضل أعمالهم !

إن أول ما يواجه الداعية إعلان وجود إله واحد يدبر أمر هذا الكون .

(١) الطاغوت : اسم لكل ما يطغى الإنسان كالأصنام والشيطان والكاهن والساحر ، وكل رأس فى الضلال ، وكل ما عبد من دون الله.

وإذا كان «نمروذ» قد ادعى الربوبية فإننا نراه يسأل إبراهيم ـ عليه السلام :

مَنْ ربك ؟

ويجيب إبراهيم : ربى الذى يحيى ويميت .

وبهذه الإجابة الموجزة قدم إبراهيم الدليل لمعرفة الله حيث إن الإحياء والإماتة لا يشارك فيهما أحد من أصحاب القدرة والسلطان . والناس جميعًا عاجزون عن الإحياء والإماتة .

إننا جميعا نشهد عملية «الإحياء» وهذا أمر لا ينكره أحد ..

ولهذا بدأ بالإحياء فقال : ربى الذى يحيى ويميت !

لقد راح «نمروذ» يغالط إبراهيم مدعيا أنه يحيى ويميت !

أليس بإمكانه أن يأتى برجلين : فيقتل أحدهما ويطلق سراح الآخر ، أليس قد أحيا من أطلقه ، وأمات من قتله ؟!

وهنا وجد إبراهيم أنه لابد من إفحامه والتضييق عليه ، فألقى فى وجهه بالحجة المسكتة المخرسة قائلا :

فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب.

وعندئذ بهت الذى كفر .. ولم يجد لديه ما يقوله .

وكأنه قدر فى نفسه أن من حفظ إبراهيم من النار قادر على أن يأتى بالشمس من المغرب فلم يطلب منه أن يأتى بها إلهه من المغرب.

ويتساءل جار الله الزمخشرى قائلا : كيف جاز أن يؤتى اللهُ المُلْكَ الكافرَ ؟

وهو سؤال ربما يخطر ببال الآخرين ! ويجيب عن تساؤله قائلا : فيه قولان :

(١) آتاه ما غلب به وتسلط من المال والخدم والأتباع .. وأما التغليب والتسليط فلا .

(٢) قيل ملكه امتحانا لعباده .

ونقول : لله حكْمة وهو لا يسأل عما يفعل وهم يُسْألون !

النمروذ يفكر ويدبر !!

لقد خاف «النمروذ» على عرشه الذى راح يتأرجح أمام تلك القوة الروحية التى يتمتع بها إبراهيم ـ عليه السلام ـ والتى يستمدها من ربه الذى يحيى ويُميت اشتدت عداوته

لإبراهيم .. لكن ماذا يفعل وقد رأى ما رأى من آيات ربه الكبرى ؟! ومعجزاته الخارقة!!

إن العداء والبغضاء لا جدوى منهما فريما عجلا بزوال عرشه .. فليُبْق عليه ولكن ينبغى أن تُنْتَهَزَ الفرصةُ للانْتقام منه والقضاء عليه !.

ولتكن هناك خطة جديدة فلينتشر رجاله فى كل أرجاء مملكته ليحذروا الناس اتباعه .. ويبعدهم عن سماعه والالتقاء به !

ونظر إبراهيم ﷺ فرأى الدعوة الوليدة تحاصَر ، فها هو ذا يعانى من التضييق عليه أنّى اتجه ..!

وهكذا شأن المصلحين فى كل أُمّة يواجهون جَبروت الطغاة وشر المفسدين فى الأرض لينشروا الحق والخير والأمن والطمأنينة فى النفوس !

لقد قرر الهجرة عنهم ، وفرّ بدينه من تلك الأرض التى لم يزدهر فيها نبته ، ولم يثمر فيها غرسه ، وهاجر.

إلى أين يا ترى ؟!

إلى «حران» فارًا بدينه تاركا وطنه وقومه ثم إلى مصر ومن هناك أزمع الرحيل وجعل وجهته فلسطين تلك الأرض المقدسة التى اتخذها موطنا ، وأقام فيها زمنا ومن هناك اصطحب هاجر وإسماعيل إلى حيث أمره الله ! حتى وقفت به ناقته عند مكان البيت العتيق ، ومن هناك عاد من حيث أتى مخلفًا وحيده فى تلك البقعة النائية ، وهو يدعو الله أن يحفظه ويرعاه : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧] .

ولبث بعيدًا عن ابنه ما شاء الله أن يلبث ، ثم وفد عليه لأمر جليل. إنه لم يفد عليه هذه المرة للاطمئنان عليه والشوق إليه كما كان يفعل بين آونة وأخرى .

ولكنه وفد هذه المرة لأمر جليل وشىء عظيم .. لقد جاء ليقيم أول بيت وضع للناس..

وارتفع البناء وتحقق الأمل والرجاء على يد إبراهيم وانتصر الحق والخير .. وارتفعت كلمة الله ! وبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين !

لقد دعا إبراهيم ﷺ ربه ﴿ .. فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧] .

واستجاب الله للدعاء ..

أما «نمروذ» فقد سلط الله عليه أضعف خلقه عليه احتقارًا به ، وتهاونًا بشأنه !

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧٣] .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ [المدثر : ٣١] .

﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ [الحشر : ٢] .

لقد حكى القرآن عن طير أبابيل رمت الطغاة بحجارة من سجيل فجعلتهم كعصف مأكول .. عندما ارادوا أن يهدموا ما بناه إبراهيم ، وما أشبه الليلة البارحة ، لقد حاج «النمروذ» «إبراهيم» فى ربه ، ووقف فى وجه الدعوة فكيف لا يلقى ذاك المصير ؟!

لقد ذهب نمروذ وبقيت شجرة إبراهيم - عليه السلام - وبقى ما بناه على مر الأيام.

موقف الحق من الباطل

الحاضر أشبه بالماضى : كان إبراهيم الخليل - عليه صلوات الله وسلامه - فى الطبقة العاشرة من أحفاد نوح عليهما السلام .

وقد شاء الله لخليله إبراهيم ، أن يكون كالدوحة اليانعة تنضح الناس بنسماتها فى الجو الهجير .

بعث الله إبراهيم ليجدد الحياة الروحية فى معشره ، ولينشر من ضوء المعرفة ما يبدد جهالة قائمة وقاتمة فيهم ، وليجتاح وثنية ناجمة بينهم .

والدعوة إلى الحق لا يسهل ترويجها ، ولا تستغنى أبدا عن جهود شاقة فى سبيلها ، ولا عن مصابرة للغواة الذين يخاصمونها ، ويتبجحون فى مقاومتها ، ويؤثرون أن يرتعوا دائما فى وادى الباطل .

وقد وصل إبراهيم - عليه السلام - فى جدال أبيه وقومه إلى دحض مفترياتهم ، وإقامة الحجة عليهم فى بيان الحق ، فمن كانت وجهته الاهتداء فقد وضحت سبيله ، ومن كانت وجهته العناد فليس بعد الحق إلا الضلال !

ولقد كان إبراهيم هو الشجرة المورقة التى تفرعت عنها النبوة من بعده فى إسماعيل ، ثم محمد ﷺ من العرب . وفى إسحاق وبنيه من بنى إسرائيل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وسجل التاريخ على النمروذ كفره كما سجل لإبراهيم الفوز العظيم.



بُخْتَنَصَّر

• هو الذى وطئ أرض الشام .. • وفتح بيت المقدس ..
• وسبى بنى إسرائيل «المسعودى»

الأمة الثالثة

بداية ونهاية

جاء فى كتاب «طبقات الأمم» لأبى القاسم صاعد بن أحمد الأندلسى حديث عن الأمة الثالثة يقول فيه :

الأمة الثالثة : الكلدانيون .

كانوا أمة قديمة الرئاسة نبيهة الملوك .. منهم النماردة الجبابرة الذين كان أولهم «النمروذ بن كوش» بانى المجدل الذى ذكره الله فى القرآن بقوله :

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل : ٢٦].

وكان منهم «نمروذ» إبراهيم ﷺ وهو النمروذ بن كنعان بن سنحاريب بن النمروذ الأكبر بانى الصرح.

وذكروا من المكر الذى حكاه الله ههنا ما جاء فى سورة إبراهيم :﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم : ٤٦].

ومنهم بختنصر بن مروزاذان بن سنحاريب من ولد نمروذ الأصفر بن كنعان الذى غزا بنى إسرائيل وقتل منهم خلقًا عظيمًا وسبا بقيتهم ، وغزا مصر ، ودوخ كثيرًا من البلدان !

ولم يزل ملك بختنصر ببابل وجميع بلاد الكلدانيين إلى أن ظهر عليهم الفرس وغلبوهم على مملكتهم ، وأبادوا كثيرا منهم فدرست أخبارهم ، وطمست آثارهم !

الدولة البابلية

سكن البابليون الجزء الجنوبى لحوض دجلة والفرات . وكانت أرضهم سهولا خصبة مبسوطة الرقعة فاشتغل البابليون بالزراعة وأنشئوا الجداول والترع الكثيرة فكثرت حاصلاتهم ، ونعمت حياتهم .

وفى أواخر أيام الدولة البابلية هاجر قوم ساميون من بلاد العرب يعرفون بالكلدانيين واستوطنوا جزء بابل الجنوبى المجاور للخليج الفارسى ؛ لذا أطلق على ذلك الجزء اسم «كلوديا» .

ومن الكلدانيين سكان بابل خرج سيدنا إبراهيم . عليه السلام . وبعثه الله . سبحانه وتعالى . نبيًا . فدعا قومه إلى ترك عبادة الأصنام .

ويذكر الماوردى فى كتابه «أعلام النبوة» أنه من وفاة موسى إلى ملك «بختنصر» تسعمائة وثمان وسبعون سنة.

ومن ملك بختنصر إلى ابتداء الهجرة ألف وثلثمئة وتسع وستون سنة.

ماذا يقول التاريخ عنه ؟

• **بختنصّر وأبوه :**

يقول التاريخ : إنه فى عهد الأسرة السادسة والعشرين : (٦٦٣-٢٥ق م) من حكم «نخاو الثانى» تم بناء عمارة بحرية للبحر الأحمر ، وأخرى للبحر الأبيض واسترداد بلاد الشام جميعها لضعف الآشوريين .

غير أن «نابو بولَصّار» ملك الكلدانيين (البابليين) أرسل ابنه «نابوخذ ناصر» بختنصّر لينزعها من أيدى المصريين فقاتلهم وهزمهم عند «قرقميش» وطاردهم ولولا وفاة والده

وضرورة رجوعه إلى بلاده لتبعهم إلى عُقْر دارهم .

وذكر المسعودى فى كتابه : «مروج الذهب» أن بختنصر هو الذى وطئ أرض الشام ، وفتح بيت المقدس ، وسَبَى سَبْى إسرائيل .

وكان من أمره بالشام والمغرب ما قد اشتهر ، والعامة تسميه : «البخت ناصر».

ثم قال : وأكثر الإخباريين والقُصاص يغالون فى أخباره ، ويبالغون فى وصفه .

وقد أرخ بطليموس صاحب كتاب المجسطى تاريخ كتابه من عهد «بختنصر» .

فهل فى القرآن الكريم ما يشير إليه ؟

مَلِك بابل يجوس خلال الديار !

• سُورة الإسراء مكيَّة :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِى إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِى وَكِيلاً (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ فِى الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِى الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴾ [الإسراء : ١ - ٥].

بختنصر وبنو إسرائيل :

ذكر ابن كثير «بختنصر» عند تفسير الآية الخامسة من سورة الإسراء من بين أولئك الذين جاسوا خلال الديار وكانوا أولى بأس شديد فتملكوا البلاد .

وبعد أن ذكر اختلاف المفسرين فى أولئك المسلّطين على بنى إسرائيل نقل رأيا عن سعيد بن جبير وغيره أنه بُخْتَنصّر «ملك بابل».

ثم قال : وقد ذكر ابن أبى حاتم له قصة عجيبة فى كيفية رقيه من حال إلى حال إلى أن ملك البلاد . وأنه سار إلى بلاد بيت المقدس فقتل بها خلقا كثيرا من بنى إسرائيل .

• لفت نظر !

وقال ابن كثير : وقد روى ابن جرير فى هذا المكان حديثا أسنده عن حذيفة مرفوعا

مطولا . وهو حديث موضوع لا محالة لا يستريب فى ذلك من عنده أوفى معرفة بالحديث .

• عجب !

والعجب كل العجب كيف راج عليه من جلالة قدره وإمامته !

وقد صرّح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزى - رحمه الله - بأنه موضوع مكذوب . وكتب ذلك على حاشية الكتاب .

وقد ورد فى هذا آثار كثيرة إسرائيلية منها ما هو موضوع من وضع بعض زنادقتهم.

ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحًا ، ونحن فى غنية عنها ولله الحمد .

وفيما قص الله علينا فى كتابه غُنْيمةٌ عما سواه من بقية الكتب قبله ، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم ! وقد أخبر الله تعالى : أنهم لما طغوا وبَغَوا سلط الله عليهم عدوّهم فاستباح بَيْضَتَهم وأذلهم وقهرهم جزاء وفاقًا وما ربك بظلام للعبيد ؛ فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقًا من الأنبياء والعلماء.

• عودة إلى ابن جرير :

وقد روى ابن جرير : حدثنى يونس بن عبد الأعلى حدثنى ابن وهب ، أخبرنى سليمان ، عن بلال ، عن يحيى بن سعيد قال : سمعت سعيد بن المسيب يقول :

ظهر بختنصر على الشام فخرّب بيت المقدس ، وقتلهم ثم أتى دمشق فقتل سبعين ألفا من المسلمين وغيرهم ، وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب ؛ وهذا هو المشهور وأنه قتل أشرافهم وعلماءهم حتى أنه لم يبق من يحفظ التوراة ، وأخذ معه منهم خلقًا كثيرًا من الأنبياء وغيرهم .

ثم يقول : وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها .

ولو وجدنا ما هو صحيح أو ما يقاربه لجاز كتابته وروايته . والله أعلم[١] .

ويقول الإمام القرطبى فى تفسير الآية الخامسة من سورة الإسراء : هؤلاء العباد هم أهل بابل ، وكان عليهم بختنصر [٢] فى المرة الأولى حيث كذبوا أرمياء وجرحوه وحبسوه . قاله ابن عباس وغيره .

(١) ابن كثير : الجزء الثالث .

(٢) التفسير الوسيط : وبختنصّر هو المعروف عند المؤرخين باسم «نبوخذ نصر».

• **القرية الظالمة :**

وفى روح المعانى لعلامة العراق الآلوسى ذكر لأقوال المفسرين عند تفسير الآية رقم ١١ من سورة الأنبياء :﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا من قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ .

فقد جاء فى البحر أن الله تعالى بعث إليهم نبيا فقتلوه ، فسلط الله عليهم بختنصّر كما سلطه على أهل بيت المقدس.

بعث إليهم جيشًا فهزموه ، ثم بعث إليهم آخر فهزموه ، فخرج إليهم بنفسه فهزمهم وقتلهم[١] .

ونستطيع أن نخرج بتصور يدلنا على مدى نفوذه وقوته واتساع ملكه . وأنه ما من ظالم إلا سيبلى بأظلم .

بختنصر وكورش

فى سنتى ٥٩٦ و ٥٨٧ قبل الميلاد أغار بختنصر **Nauchon osor** ملك بابل على فلسطين ، فأزال ملك بنى إسرائيل ، وأسر منهم عددًا كبيرًا أجلاهم إلى بابل .

ومن ثمّ اشتهر ذلك فى التاريخ باسم نفى بابل ؛ حيث ظلوا فى الأسر زهاء خمسين سنة حتى تغلبَ كورش **Cyrush** ملك الفرس على البابليين عام ٥٣٨ قبل الميلاد ، فأطلق سراح اليهود ، ورجع كثير منهم إلى فلسطين[٢] .

وإذا كان بختنصر قد أجلاهم فإن كورش قد أطلق سراحهم .

ولكن فى سنة ١٣٥ بعد الميلاد أخمد الرومان فى عهد الأمبراطور «هادريان» ثورة قام بها اليهود من (١٣٠ إلى ١٥٠) واستخدموا فى إخمادهم أعنف وسائل البطش ، فدمروا بلادهم ، وأخرجوهم من ديارهم هائمين على وجوههم فى كل البقاع حتى يومنا هذا على الرغم من إنشاء دولتهم ، ومن هجرة بعضهم إليها .

وفى إجلاء بنى إسرائيل فى هاتين المرتين يشير القرآن الكريم إذ يقول :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا

(١) روح المعانى الجزء السابع عشر.

(٢) الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام . د. على عبد الواحد وافى.

﴿ ٦ ﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿ ٦ ﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ[1] لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٤ - ٧].

بختنصّر والإسرائيليات فى كتب التفسير فى إفساد بنى إسرائيل

من الإسرائيليات فى كتب التفسير ما يذكره بعض المفسرين عند قوله تعالى :

﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿ ٤ ﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾

[الإسراء : ٤-٨]

وقد كانت معظم الروايات فى بيان ذوى البأس الشديد الذين سُلّطوا عليهم تدور حول :

بُختنصّر البابلىّ

ولكنهم أحاطوه بهالة من العجائب والغرائب والمبالغات التى لا تصدق .

وقد أخرج هذه الروايات ابن جرير فى تفسيره وأكثر منها جدا ، وابن أبى حاتم والبغوى وغيرهم بسندها .

وخرجها من غير ذكر أسانيدها مع عزوها إلى مخرجيها السيوطى فى الدر المنثور.

ويرحم الله الإمام الحافظ الناقد ابن كثير حيث قال فى تفسيره :

وقد روى ابن جرير فى هذا المكان حديثا أسنده عن حذيفة مرفوعا مطولا ، وهو حديث موضوع لا محالة .

ونحن فى غُنية عن تلك الآثار الإسرائيلية ولله الحمد . وفيما قص الله علينا فى كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله ، ولم يحوجنا الله ، ولا رسوله إليهم .

وقد أخذ الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا سلط الله عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم ،

(١) وعد الآخرة : أى وعد المرة الآخرة ، وهو الجلاء الثانى.

وسلك خلال بيوتهم وأذلهم جزاء وفاقًا وما ربك بظلام للعبيد ؛ فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقًا كثيرًا من الأنبياء والعلماء[1] .

والقصص القرآني لا يعنى بذكر الأشخاص ، ولا الأماكن ، لأن الغرض منه العبرة والتذكير ، والتعليم .

عود على بدء
أشهر القدامى من ملوك بابل

ويحدثنا عن أشهر القدامى من ملوك بابل الأستاذ : حامد عبد القادر عضو مجمع اللغة العربية سابقاً فى كتابه : «الأمم السامية مصادر تاريخها وحضارتها» ، فيقول : كانت مدينة «بابل» أعظم مدن آسيا وأبعدها أثرا وأرفعها قدرا ، وأكثرها وأوسعها عمرانا ، وأمنعها عزة وسلطانا.

صاحبت الملوك دهرًا طويلا ، وتقلبت فى النعيم والعز أمدًا بعيدًا حتى لم يكن لها مثيل بين المدن التى تقدمتها أو عاصرتها .

ثم يتحدث عن أشهر ملوكها ذاكرا منهم «أسرة حمورابى» أولا ، ثم يتناول آخر ملوك تلك الأسرة وهو «نيبوبل عزر» الذى أدركته الشيخوخة فاضطر إلى أن يحل محله ابنه «بُخْتَنَصَّر» .

وإليك ما قاله عنه : بختنصر الأكبر (٦٠٥-٥٦٢ ق. م)[2] أدركت الشيخوخة نيبوبل عزر ، وخارت قواه وعجز عن إدارة شئون الملك الواسع الفسيح الذى كان يمتد من حوض دجلة شرقًا حتى ساحل البحر المتوسط غربا ، فاضطر إلى أن يحل محله ابنه بختنصر الذى يسميه العهد القديم نبوخذ نصر ، وكان حازمًا شجاعًا فأحسن سياسة الملك وأرغم المارقين على العودة إلى طاعته ، وأعاد إلى مملكة أبيه ما كان قد انسلخ منها من سورية وفلسطين وغيرهما مما كان المصريون قد استولوا عليه من بلاده .

وفى سنة ٦٠٤ ق . م نعى إليه أبوه وهو فى إحدى غزواته فكر راجعًا حيث خلف أباه على سرير الملك وفى مقدمة أعمال بختنصر الحربية حروبه التى شنها على يهوذا مملكة بنى إسرائيل الجنوبية وانتصاره عليها مرة بعد أخرى انتصارًا دعا اليهود إلى

(١) تفسير ابن كثير والبغوى . ج ٥ ص ١٤٨-١٥٠ .
(٢) بختنصر Nabukadnezar II (٦٠٥-٥٦٢ ق. م).

العناد ، واستعانوا على بختنصر بغيرهم . ولما أصروا على عنادهم حاصر أورشليم عاصمة يهوذا ، وشدد الحصار عليها واستمر كذلك زهاء تسعة عشر شهرًا حتى اضطرت إلى التسليم فدخلها ظافرًا وقضى عليها ، ودمر قصر الملك فيها كما دمر الهيكل المقدس الأول ، وذبح نحو ستين من أعيان المدينة وحمل من بقى من سكانها أسرى إلى بابل ، وكان ذلك نحو ٥٨٦ ق. م ، وكان من قبل قد أسر نحو ١٠ آلاف نسمة من أعيان اليهود وذوى الحرف والصناعات فيهم ، ولم يترك فى أورشليم إلا الفقراء والمعوزين .

وتطلعت عينه إلى ثروة الفينيقيين فقصد إلى صور ، وحاصرها وقضى فى حصارها نحو ١٣ سنة حتى اضطر الفينيقيِّين إلى التسليم فدخل المدينة وفعل بأهلها كما فعل بأورشليم وسكانها . وعلى إثر ذلك خضعت له سائر المدن والمستعمرات الفينيقية التى كانت على سواحل البحر المتوسط فى أفريقيا وأوروبا . وقيل إن غزوات بختنصر قد امتدت إلى الحجاز واليمن فى بلاد العرب فاستولى عليهما ، وأجلى كثيرا من سكانهما إلى بابل ، وسخرهم مع من سخر فى إعادة بناء بابل .

ومع ما كان عليه بختنصر من أخلاق علية فقد كان سريع الغضب متكبرًا مغرورًا بنفسه لا يقبل عذرًا ، وقد يشتد غضبه على مخالفه فيلقيه فى النار وفى أخريات حياته تحطمت قواه العصبية واعترته لوثة عقلية اعتقد معها أنه بهيمة فأخذ يصحب الأنعام فى مراعيها ، ثم اعتزل الحياة الاجتماعية تاركًا الأمر لابنه ، وعكف على سكنى البوادى والقفار نحو سبع سنين . وبعد أن عاد إلى رشده لم يلبث أن مات عام ٥٦٢ ق.م.

وفى عام ٥٣٨ ق. م استولى الفرس على بابل فى عهد كورش وهو الذى سمح لليهود بأن يكونوا أحرارًا فى العودة إلى بلادهم.

وفى عام ٣٣١ق . م استولى اليونان على هذه البلاد فى عهد الإسكندر المقدونى الأكبر ، وحوالى سنة ٣١١ ق. م استولى السلوقيون خلفاء الإسكندر على بابل وما حوليها ثم قام من بعدهم البارثيون عام ٢٥٠ ق. م .

وفى عام ٢٢٦ خضعت بابل وما حولها للدولة الساسانية واستولى المسلمون على فارس فى أواخر عهدها عام ٦٢٢ م فى أوائل القرن السابع الميلادى .

بعد وفاة بختنصر ضعف أمر الدولة الكلدانية الثانية فى عهد ابنه اميل مردوخ

وخلفائه . ولم تزل تسير فى طريق الضعف والتدهور حتى ظهر كورش ملك فارس فاستولى على بابل مَعَ ما استولى عليه من الممالك ، وبذلك سقطت الدولة الكلدانية الثانية حوالى عام ٥٣٨ ق. م فصارت بابل جزءًا من فارس ، وسمح كورش لليهود بالعودة إلى بلادهم إذا شاءوا . ولم يكن عجيبًا أن تسقط هذه الدولة بسرعة بعد أن بلغت ما بلغت من مجد وعظمة فى زمن قصير لم يجاوز سبعين سنة إلا بقليل ، وكان أهم أسباب سقوطها :

١. أنها لم تكن تستند فى وجودها إلى أسس عمرانية اجتماعية سليمة ولا إلى مبادئ سياسية ثابتة تطيل أجلها بل كانت حياتها أقرب إلى الفوضى والهمجية .

٢. أن رعاياها قد انشقوا على أنفسهم وتفرقوا طوائف وشيعا متناثرة فكان الكهنة يريدون الاستئثار بالسلطان ، وكان يعارضهم فى ذلك فريقان هما الكلدان وأشراف البابليين القدماء .

٣. أن الكلدانيين بوجه عام لم يكونوا ذوى جلد وصبر وقدرة بارزة على ممارسة الحروب الفنية مدة طويلة كما كان الأشوريون .

٤. أن الدولة الفارسية كانت قد ظهرت فى ذلك الوقت الذى ضعف فيه شأن الدولة الكلدانية الثانية ، وظهر فى فارس كورش ، وكان قويا شجاعا جبارًا صاحب نفوذ عظيم وجيوش قوية جرارة كثيرة العتاد ، وفيرة الأعداد .

لهذه الأسباب وغيرها سقطت الدولة الكلدانية الثانية ولم يغن عنها شيئا توسل نابونيد **Nebonid** آخر ملوكها (٥٥٥-٥٣٩ ق. م) إلى آلهته وتماثيلهم ، ولا ذبح الذبائح وتقديم القرابين لإلههم العظيم بل .

وحوالى سنة ٥٢١ ق. م قامت فتنة أهلية فى بلاد فارس فلاحت للبابليين بارقة أمل فى استرداد استقلالهم وانتهزوا هذه الفرصة فشقوا عصا الطاعة على الفرس وأجلسوا على عرش بلادهم رجلا اسمه ند بنتوبيل ادعى أنه من ذرية نابونائيد ، ولقب نفسه بختنصر الثالث ولكن دارا (داريوش) الأول الفارسى ظهر وأعلن الحرب على بابل وحاصر عاصمتها ثم اقتحمها وقتل بختنصر هذا سنة ٥١٩ ق . م .

وبذلك عادت بابل إلى حوزة الفرس واستمرت كذلك حتى ظهر أمر اليونان فى عهد الإسكندر الأكبر المقدونى ، وامتدت فتوحه حتى شملت فارس والهند وغيرهما من بلاد الشرق ، وكان استيلاؤه على فارس وأملاكها فى عهد دارا الثالث عام ٣٣١ ق. م .

وبعد وفاة الإسكندر عام ٣٢٣ ق. م اقتسم قواد جيوشه مملكته فكانت بلاد الكلدان وسوريا من نصيب أحدهم المسمى سلوقوس مؤسس الدولة السلوقية .

وتدهورت الدولة السلوقية فى بابل وسوريا فى منتصف القرن الثالث ق. م فخرج عليهم البارثيون الذين كانت بلادهم إلى الشرق من بلاد الميديين حوالى عام ٢٥٠ ق. م وانتهى الأمر بأن قضى البارثيون على السلوقيين ، وأسسوا بعض دويلات صغيرة فى سوريا وما حولها منها دولة أورهاى (الرها) ودولة تدمر (بالميرا) .

ثم ظهرت بعد ذلك الدولة الفارسية الساسانية فى أوائل القرن الثالث الميلادى فقهرت الدولة البارثية ، وقضت عليها القضاء النهائى ، واستولت على أملاكها فى عهد أردشير أول ملوك الدولة الساسانية التى هى دولة الأكاسرة، وكان ذلك حوالى سنة ٢٢٦ م وظلت بابل أو العراق تابعة لأكاسرة الفرس حتى جاء الإسلام فى أوائل القرن السابع الميلادى فاستولى المسلمون على فارس وممتلكاتها فى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وذلك بعد موقعة نهاوند التى حدثت سنة ٢١هـ سنة ٦٤٣م.

وأصبحت كلمة الله هى العليا على يد إبراهيم وذريته من بعده إسماعيل ومحمد ﷺ وذهب النمروذ وبختنصر وبقى ما ينفع الناس ليمكث فى الأرض .

عود على بدء

كانت «بابل» فى أيام عظمتها الأولى متقدمة على «نينوى» فلما تقدمتها «نينوى» عظم عليها ذلك[1] .

وحاول ملوكها أو ولاتها أو أهلها مرارا أن يرجعوا بها إلى سابق عهدها من العظمة فلم يفلحوا إلى أن قام «نبوبلاسر» فانتهز فرصة انحطاط «الأشوريين» وحالف «الماريين» عليهم أن يكون هو وارث عز «أشور» وولاياتها فى الجزيرة العراقية وجميع البلاد غربى الفرات بل فى مصر وبلاد العرب أيضا فترجع بذلك «بابل» إلى عزها ، ومكانتها الأولى.

فلما كانت موقعة «كركميش» وانتصر «نبوخذ نصّر» ذلك الانتصار العظيم على فرعون «نخو» وجيوشه رأى فى انتصاره ما يحقق تلك الأمانى التى كانت تجول فى خاطر أبيه فشمر لتحقيقها ، وما زال يحارب حتى رأى عاصمة مدينة العلم والغنى والسلطة .

وبعبارة أخرى أعظم مدينة فى تلك الأيام ، فإنه أخضع لسطوتها الجزيرة العراقية ، والديار الشامية من «كركميش» إلى «غزة» بما فيه بادية الشام من «الأبُلّة» إلى «أيلة» وجعلها كلها ولايات بابلية ، تدين بطاعته ، وتدفع إليه الجزية .

وحارب العرب أيضا فى بلادهم فوطئ نجدا والحجاز ، ودوخ تهامة واليمن وجعلها من ولاياته ، وأسكن قومه من تجار البابليين والكلدان فى قلب اليمن إلى جانب إخضاع عُمان وأرض البحرين .

وكانت آخر بلاد حاربها «مصر» فتغلب على أهلها وأخضعهم لسطوته ، ورجع من هناك بالأسلاب والغنائم.

(١) من مقالة للأستاذ جَبر ضومط ونشرها فى مجلتى المقتطف والهلال بين سنة ١٨٨٨ وسنة ١٩٢٨م . وجمعت فى كتاب تحت عنوان «فلسفة اللغة العربية وتطورها».

لقد قام «نبوخذ نصّر» على عرش بابل سنة ٦٠٧ ق. م ، ولكن أيامه لم تطل بعد أن دوخ مصر حتى مضى فى سبيله ، ولم يقم بعده مثله على بابل ، وربما لم يقم قبله من هو أعظم منه إلا أن يكون الملك «حمورابي» وكذلك لم تطل مدة الدولية البابلية بعد وفاته إلا نحوا من ثلاثين سنة غزا الفرس بعدها بابل بقيادة «كورش» فافتتحوا المدينة ، وافتتحوا بافتتاحها كل الولايات البابلية التى كانت لـ «نبوخذ نصّر» ؛ لأن هذه جميعها خضعت للفرس من غير أن يرمى عليهم سهم واحد .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٦٤٢ / ٨٩

طُبع بمطابع ابن سينا بالقاهرة

هذا الكتاب

رسالة موجهة إلي دعاة «العولمة» الذين يكيلون بمكيالين ويلقون هؤلاء بوجه، وأولئك بوجه، متجاهلين ما تتعرض له شعوب من قهر وإذلال وتجويع حتي طفح الكيل، وحل بها الويل!

فإلي الذين يتحكمون في مقدرات الشعوب نقدم:

هؤلاء: **الأربعة الذين ملكوا العالم**

وفي حياتهم دروس وعظات بالغات لمن أراد الآخرة، وسعي لها سعيها وهو مؤمن!

يقول المؤرخون: لقد ملك الدنيا قديماً أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: ذو القرنين، وسليمان. أما الكافران فهما: النُمروذ، وبُختنصر.

ومن الأنبياء من تولي الملك فكان مثلاً يحتذي، ومن عباد الله من آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علماً فكان خير معلم للأجيال.

ولأمر ما كان الإمام العادل علي رأس السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

ومن يقرأ الآيات التي حدثت المسلمين عن النبي سليمان - عليه السلام -، أو العبد الصالح ذي القرنين يجد أنها حملت إليهم بذور الحضارة والمدنية فارتقوا بها أيام مجدهم وعزهم ونقلها عنهم الأوربيون.

ولنا في نهاية «النمروذ» و «بختنصر» عبرة لمن شاء أن يعتبر، وصدق الله: ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

[البقرة: ٢٥٨]

وكفي بالله وليا وكفي بالله نصيراً.

الناشر